الفصل الخامس

التواصل متعدد اللغات والتسييس
COMMUNICATION MULTILINGUE ET POLITISATION

يبدو واضحاً، من خلال دراسة الحالات السابقة، أن التواصل الدبلوماسي مُسيس، أي أنه يخضع لاعتبارات أيديولوجية أكثر منها تواصلية. وقد كان "التسييس"، وفقاً للمختصين، موضوع العديد من التعريفات، والنشاطات الاجتماعية، والممارسات الحرفية (لاغروي Lagroye، ٢٠٠٣م).

يقوم التسييس اللغوي على إضافة بعد أيديولوجي، صريح أو ضمني، لموضوع لم يكن في الأصل يتضمنه بالضرورة. تحيل الصفة "أيديولوجي" هنا إلى تصرفات السلطة الفريدة بالنسبة إلى اللغة، وممارستها، وإدارتها على الشبكة. وتتراءى خلف هذه التصرفات علاقات الهيمنة بين مختلف الفئات في السلطة. وقد خصص حاتم وميسون Hatim et Mason (١٩٩٧م) في مصنفهما فصلاً كاملاً للأيديولوجيا: إنهما يميزان "أيديولوجيا فعل الترجمة" من "الترجمة المؤدلجة".

سوف أهتم هنا على وجه الخصوص برؤية العالم واللغات التي تقوم عليها أيديولوجيا الترجمة. تساعد دراستي المتعلقة بتوطين مواقع ويب الممثليات الدبلوماسية والتأملات التجريبية التي ترافقها على اكتشاف تحديات اللغة في عالم التواصل الافتراضي بطريقة مختلفة.

إن الإشكالية العامة للدراسة هي إشكالية أدبيات الترجمة، التي تعني نقد عملية بناء سياسي للعالم الافتراضي وفق معايير حزبية تنعكس في العالم اللغوي. تساعد وجهة النظر هذه على إدراج المشكلات الاجتماعية اللغوية والمعارضات السياسية ضمن تمثيل للتواصل متعدد اللغات يجعلها ذات معنى. وإن دراسة التباين السياسي الذي ينظم المجموعات والأفراد والكلمات والرموز يساعد بسهولة على إدراك المغزى الأدبياتي لهذا التأمل في التواصل.

(١) مواقع ويب السفارات العراقية

لقد قيلت أشياء كثيرة وكتبت عن العراق في السنوات الأخيرة. ولكن أعمالاً قليلة تناولت التواصل الافتراضي للحكومة العراقية الذي شهد تطوراً غير مسبوق منذ عام ٢٠٠٣م. ولا جرم أن شبكة الإنترنت internet ظهرت كوسيط إعلامي تفضله الجماعات المتمردة (غيدير وباران Guidère et Baran، ٢٠٠٥م)، لكن التواصل الرسمي والمؤسساتي لم يُطرح بشكل كاف على الشبكة العالمية la Toile.

ومع ذلك، استمر توطين مواقع الويب حتى في أسوأ مراحل النزاع. وقد قدمت مختلف مكونات السلطة العراقية للعالم، وبصيغة متعددة اللغات، تواصلاً متنوعاً تطور حسب الأحداث السياسية الوطنية والدولية، ولكنه كان يبدو دائماً موجهاً أيديولوجياً، مهما كانت اللغة الهدف في أثناء التواصل.

أقترح، بهدف شرح ظاهرة الأدلجة هذه التي تمس أكثر فأكثر التواصل السياسي على الشبكة، دراسة حالات ملموسة من مواقع الويب الدبلوماسية، وهي مواقع السفارات العراقية، المتوفرة بثلاث لغات تحظى بالأولوية لدى الحكومة العراقية: الإنجليزية، والفرنسية، والعربية.

تهدف هذه الدراسة المعمقة للشكل الإعلامي وللمضمون التحريري إلى الإجابة عن السؤال التالي: إلى أي حد يمكن التوفيق بين التواصل والتسييس في الأوقات الحرجة من تاريخ بلد ما؟

إن تصفح الشبكة بحثاً عن مواقع الويب الخاصة بالممثليات الدبلوماسية العراقية في الخارج يساعد على تسجيل عدد من الملاحظات العملية.

أولاً: هناك عدد قليل جداً من السفارات العراقية (يكاد عددها يصل إلى ١٠ تقريباً) التي لها موقع ويب، والتي لم يتم تحديث معظمها. ويبدو أن ثلاثة منها فقط ما يزال في الخدمة في بداية عام ٢٠٠٧م: في الولايات المتحدة، وبريطانيا العظمى، وكندا.

ثانياً: يبدو أن جودة موقع الويب تشير إلى الثقل السياسي للسفارة المعنية. وهكذا، يمكن التأكيد بكل موضوعية أن الموقع الأفضل تقديماً ومادة هو موقع السفارة العراقية في واشنطن: إنه يمثل واجهة حقيقية للحكومة. ويسير على خطاه موقع السفارة العراقية في لندن، في حين يبدو أن موقع السفارة العراقية في أوتاوا Ottawa أقل أهمية على جميع المستويات.

ثالثاً: إن تقديم كل موقع دبلوماسي ومضمونه يتغيران تغيراً هائلاً من سفارة لأخرى. ويبدو أن بعض المواقع تحول إلى الدعاية للحكومة حصراً، وبعضها الآخر إلى الجالية العراقية في الخارج أو أيضاً لشعوب الدول المضيفة.

وهكذا، يبدو أن العرض على الشبكة يتم بطريقة فوضوية وصدفوية، من دون أي تنسيق دبلوماسي، ومن دون إشراك الغير في المعلومات الرسمية. فتأثير الفوضى الدبلوماسية ينعكس بوضوح في العالم الافتراضي. وسوف نكتشف المواقع الرئيسة المتوفرة لفهم العلاقة بين التواصل والتسييس في زمن الحرب.

(١,١) موقع السفارة العراقية في واشنطن

يقدم موقع السفارة العراقية في واشنطن (الولايات المتحدة) مخطط رسوم حديث ومتقن، ذو بنية ثلاثية الأجزاء: يشغل الجزء العلوي من الصفحة الرئيسة الرموز الرسمية للدولة (العلم العراقي يساراً، والأسد السومري يميناً)، بينما خصص الجزء الأيسر من الشاشة لرؤوس عناوين الدخول للموقع (معلومات عن الدولة، وكلمة السفير، والخدمات القنصلية، والحكومة، والأحداث). وأما الجزء الرئيس، وهو الأكثر وضوحاً، فقد خصص للإعلام الدبلوماسي، وللأحداث المهمة في السفارة. الجزءان الأوليان ثابتان، في حين أن الجزء الرئيس متحرك (انظر نسخة من الشاشة على الموقع www.guidere.org).

يمكن، للوهلة الأولى، أن يدهش القسم الأخير مستخدم الإنترنت: لأنه يقتصر من جهة على صور (بالقطع الكبير) فقط، ولأن الصور المنشورة من جهة أخرى تتعلق بالمسؤولين العراقيين (الرئيس، ورئيس الوزراء) حصراً. ويبدو بوضوح من التفاصيل أن تواصل الموقع يتمحور أساساً حول الدعاية لرؤساء الحكومة العراقية.

وأما على المستوى اللغوي، فإنه لمن المدهش أيضاً أن نلاحظ عدم وجود نسخة عربية من الموقع. كل شيء بالإنجليزية باستثناء عبارة الترحيب (أهلاً وسهلاً)، المنسوخة على شكل صورة، والمنشورة بالعربية على الصفحة الرئيسة، الأمر الذي يدعو للتساؤل حول الجمهور الهدف من خلال هيمنة اللغة الإنجليزية هذه.

على المستوى التحريري، كانت كل رؤوس العناوين في الموقع شبه خالية بتاريخ الأول من مارس/آذار ٢٠٠٧م. وكانت الصفحات تظهر عبارة "Under construction" (قيد الإنشاء)، من دون تحديثها خلال الشهور الستة السابقة (تم إجراء المتابعة بين شهر سبتمبر/أيلول ٢٠٠٦م وشهر مارس/آذار ٢٠٠٧م).

وكانت الصفحة الوحيدة التي تم تحريرها كلياً تتعلق بتاريخ العراق (سوف أعود إلى هذه النقطة).

أشير أيضاً إلى غياب أية معلومة عن الحرب تحت رأس العنوان "News from Iraq" (أخبار من العراق). إننا لا نجد أبداً أي شيء عن الحرب في مجمل صفحات الموقع. وإن الذي لا يتابع الأخبار التي تنشرها يومياً وسائل الإعلام الأمريكية، ويريد السفر إلى العراق، لن يجد مطلقاً أي شيء عن الوضع في هذا البلد. فالعنف الطائفي على وجه الخصوص الذي يضع العراقيين الشيعة في مقابل السنة تم حجبه وإهماله كلياً.

إن نفي الواقع السياسي هذا بالتوطين يمكن أن يكون مدهشاً، ولكنه يعكس خياراً توجيهياً: صمم الموقع ليكون واجهة للشخصيات العراقية، وليس موقعاً إعلامياً موجهاً للجالية العراقية المقيمة في الولايات المتحدة. وإن شخصنة التواصل الدبلوماسي سببها أن عامة الناس كانت تجهل تقريباً الرئيس العراقي ورئيس وزرائه آنذاك، وأن مختلف الطوائف التي يتكون منها البلد لا تعترف بهما. وكانت الاحتجاجات بعد عامين من تسلمهما السلطة قوية بحيث أن مقاومة نشطة جداً تلتهما في عدة مناطق من البلد.

وأما بخصوص المعلومات القنصلية بالمعنى الدقيق، والموجهة إلى العراقيين المقيمين في الخارج، فيلاحظ وجود موقع منافس – ولكنه مكمل في الواقع – لا يتميز عنوانه URL[1] إلا من خلال حذف حرف i الإنجليزي: "iraqembassy.org" بدلاً من "iraqiembassy.org".

---

[1] الأصل الإنجليزي Uniform Resource Locator، ومقابله الفرنسي Repère Uniforme de Ressource، ويعني عنوان الويب. (المترجم).

لقد قامت غرفة التجارة الأمريكية-العراقية بتصميم هذا الموقع الذي يتمتع ببعد إداري وبيروقراطي بالمعنى الدقيق. وهكذا، تجعلنا قراءة مختلف رؤوس العناوين نعتقد أن "تصديق" الوثائق هي قضية على غاية من الأهمية في حين أن الأمر يتعلق بإجراء تقنوقراطي محض.

أشير هنا أيضاً إلى أنه لا توجد نسخة عربية من هذا الموقع. ويبدو أن الموقع يتوجه إلى العراقيين الذين يقيمون في الولايات المتحدة، والذين يتكلمون الإنجليزية الأمريكية بسهولة.

(١,٢) موقع السفارة العراقية في لندن

ينطوي موقع السفارة العراقية في لندن (بريطانيا العظمى) على مخطط رسوم مختلف، وأقل إتقاناً من مخطط رسوم موقع السفارة في واشنطن. وهناك عدة اختلافات مفيدة جديرة بالذكر:

أولاً: إن رؤوس عناوين الدخول إلى الجزء الأيسر أقل عدداً وأقل مادة. ليس هناك على وجه الخصوص أي صورة باستثناء علم العراق وخريطته، وأي تقديم لمسؤول عراقي. وأشير فقط إلى وجود ارتباط تشعبي مع موقع الرئاسة العراقية على موقع السفارة.

ثانياً: إن المضمون التحريري ليس موحداً، وإن كل المعلومات الظاهرة على صفحات الموقع قديمة، ولكنها تهمل الوضع في العراق أيضاً.

ثالثاً: إن الموقع ثلاثي اللغة نظراً لوجود ثلاثة روابط في أعلى الصفحة الرئيسة يساراً، توجه إلى النسخ الإنجليزية، والعربية، والكردية.

وهكذا يبدو أن الممثلية الدبلوماسية في لندن تتمتع باستقلال كلي في تحديد شكل التواصل السياسي على الشبكة ومضمونه. والواقع أن الحكومة المركزية في بغداد

لا تمارس أي سلطة حقيقية على السفارات، وأن التواصل يتم حسب الأحداث والضغوط الأجنبية. وهكذا فإن القضية الرئيسة التي شغلت الجزء الأساسي من الصفحة الرئيسة خلال عدة شهور هي قضية الجوازات الإلكترونية المطلوبة للدخول إلى الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى (الفحص، والتجديد، إلخ).

إن النسخة العربية من موقع السفارة العراقية في لندن ترجمة حرفية للمعلومات المتوفرة بالإنجليزية. وأما النسخة الكردية من الموقع فهي "قيد الإنشاء"، ولم تظهر أبداً خلال سنتي المتابعة. وهكذا، نلاحظ وجود تنافس ضمني بين مختلف اللغات الموجودة في العراق.

وأما نتيجة معاينة موقع السفارة في واشنطن فهي مختصرة، ولكن الوضع جدير بالتوضيح: اللغة المستخدمة هي الإنجليزية فقط، وليس هناك استخدام للغة أخرى أو إعلان عنها، حتى أن لغتي الدولة الرسميتين، أي العربية والكردية، غائبتان.

ويبقى أن تفوق الإنجليزية في موقع لندن لا جدال فيه، ولكن وجود نسخة عربية يسمح بوضع تسلسل ضمني يضع العربية خلف الإنجليزية، نظراً للاهتمام الذي تحظى به لغة التواصل.

إن الإعلان عن نسخة كردية لم تتحقق أبداً يؤدي بالطبع إلى منح الكردية المرتبة الأخيرة في السلم الرمزي للغات المستخدمة في الواقع (في العراق) وفي العالم الافتراضي (على الشبكة).

وإن تحليل علاقات الهيمنة اللغوية على شبكة الإنترنت يتأكد في التواصل الدبلوماسي للسفارة العراقية في كندا. فموقع السفارة العراقية في أوتاوا يظهر بوضوح صواب تأويل قائم على الهيمنة اللغوية بوصفها صورة للهيمنة السياسية.

(١,٣) موقع السفارة العراقية في أوتاوا

تكمن خصوصية موقع السفارة العراقية في أوتاوا التي يستحق الذكر، إضافة إلى امتلاكه مخطط رسوم ومضمون تحريري مختلفين كلياً عن السفارات المذكورة آنفاً، في توفره بما لا يقل عن أربع لغات كما هو ظاهر على الصفحة الرئيسة!

يبدو أن لغتي التصفح الأوليتين، أي الإنجليزية والفرنسية، تشكلان جواباً عن متطلبات التشريع الخاصة بالثنائية اللغوية في الدولة المضيفة (كندا). وهذا التقيد بالتشريع الكندي مدهش لاسيما أن الممثليات الدبلوماسية الأخرى الموجودة في كندا تجهله.

ويبدو أن ما يبرر وجود لغتين أخريين على الصفحة الرئيسة للموقع، وهما العربية والكردية، هو الحرص على التقيد بتشريع البلد الأصل، أي العراق الذي يعتبر هاتين اللغتين لغتين رسميتين.

إننا بالنتيجة أمام مقاربة شرعوية تقريباً للغات المستخدمة في التواصل. ولكن هذا الحرص الشرعوي شكلي كلياً لأن اللغات الأربع المعلن عنها يتوفر منها فعلياً لغتان فقط: الإنجليزية والعربية.

يقودنا ذلك إلى مراجعة سلم التسلسل الرمزي للغات الموجودة التي تتنافس على مواقع الممثليات الدبلوماسية العراقية.

ولا جرم أن الإنجليزية تؤكد تفوقها الذي لا جدال فيه لأنها مازالت مرة أخرى موجودة بطريقة مؤكدة، وتقدم المضمون التحريري الأكثر ثراء وتنوعاً.

وإنه لمن الواضح أيضاً أنه تم إبعاد اللغة الكردية نهائياً إلى المرتبة الأخيرة بوصفها النسيب الفقير في لغات التواصل المستخدمة في العراق، والمجهولة في التواصل الافتراضي على الشبكة.

وتؤكد اللغة العربية من جهتها مكانتها بوصفها لغة قومية أكيدة من خلال وجود نسخة كاملة من الموقع وغنية بالمعلومات، حتى وإن تطلبت معالجتها اهتماماً خاصاً.

إن الجديد في تصنيف اللغات هذا يتعلق بوجود اللغة الفرنسية على الصفحة الرئيسة، ولكن هذا الوجود يبدو شكلياً أيضاً كما في حالة اللغة الكردية (مجرد استجابة لمتطلب تشريعي).

وإنه لمن المهم مع ذلك التساؤل حول إمكانية وضع تسلسل للغات الأصل (العربية، والكردية) وللغات الدول المضيفة (الإنجليزية، والفرنسية) وفقاً للاستخدامات الملاحظة على الشبكة، وبحسب الإدراك المحلي.

ونظراً لأن النسختين المتوفرتين اللتين يمكن الاطلاع عليهما فعلياً هما النسخة الإنجليزية والنسخة العربية فقط، فإنه يمكن الاستنتاج من ذلك أن أغلبية الجمهور الهدف تتكلم هاتين اللغتين، وأن هاتين اللغتين تهيمنان في إدراك منتجي المضمون التحريري للعالم الافتراضي.

ولكن هؤلاء المنتجين ليسوا حياديين ولا غير محددين. إنهم يتمتعون بسمة سياسية، ويظهرون توجهاً أيديولوجياً يعزز الوضع الافتراضي للغات الموجودة. وهكذا، توضح القراءة المتأنية للنسخة الإنجليزية من الموقع أن المحررين كنديون ناطقون بالإنجليزية يقفون بوضوح ضد الحكومة العراقية التي كلفوا مع ذلك بتمثيلها رسمياً. إن الموقع لا يتكلم بالإنجليزية إلا على الفضائح المرتبطة بالأعضاء البارزين في الحكومة، بدءاً من الرئيس ورئيس الوزراء العراقيين، وهو أمر مدهش على الأقل في موقع دبلوماسي. وعلى العكس من ذلك، نلاحظ أن مضمون النسخة العربية مختلف كلياً، ويشير بوضوح أيضاً إلى أن المحررين عرب يقفون إلى جانب المسؤولين العراقيين (مناضلين مؤيدين للحكومة). وتحاول مختلف رؤوس العناوين عرض جهود الحكومة العراقية الرامية لإعادة بناء البلد، وشكرها للقوى الأخرى، وخطابات قادتها

المتسامحة، إلخ. ويُخيل إلينا أننا نتصفح موقعاً مختلفاً عن النسخة الإنجليزية لدرجة تجعلنا نتساءل إن كان الأمر يتعلق بالسفارة نفسها.

إنه لمن السهل إذن الربط بين فحوى المضمون التحريري في لغة معينة ووظيفة هذه اللغة في الإدراك العام لمستخدمي الشبكة. وهكذا، يضع فعلياً توفر المعلومات المعادية للحكومة بالإنجليزية فقط المحررين إلى جانب التحالف الغربي، ويعزز المواقف الأمريكية. وبالمقابل، تعزز العبارات العربية التي تثني على الحكومة العراقية صورة هذه اللغة بوصفها تعبيراً عن الهوية العربية والعزة القومية. إنه موقف نموذجي تقاوم فيه لغة مُهيمنة (الإنجليزية) لغة تعبر عن الهوية (العربية).

ورغم تجاهل اللغتين قواعد الحياد والموضوعية الأساسية في نقل المعلومة، إلا أن الإنجليزية تبدو لغة المحتل الظالم الذي يصل به الأمر إلى إعطاء دروس في السلوك الجيد على الشبكة العالمية. إن محرري العناوين الناقدة، لا بل اللاذعة يُعتبرون في أفضل الحالات مؤيدين للأمريكيين، وفي أسوأها "خائنين" للقضية الوطنية، بوصفهم مغتابون عنيدون للحكومة العراقية. وباختصار، سرعان ما يتم الربط بين الوضع الحقيقي على أرض الواقع السياسي والإدراك الاجتماعي لمتكلمي اللغات في العالم الافتراضي. إن تسييس المضمون يجعل من الأول (العالم الافتراضي) امتداداً لغوياً وتواصلياً للعالم الآخر(العالم الحقيقي).

(١,٤) تسييس المضمون التحريري

إن تحليل البعد المنطقي والمفرداتي على وجه الخصوص في عملية التسييس التي تمت ملاحظتها في هذه المواقع مفيد جداً. إن الخطب المتصلة مباشرة بالإنترنت، والمفردات المستخدمة تعكس في الواقع تسييس المضمون التحريري: تبدو الكلمات، والعبارات، والاستعارات المعينات اللغوية للتعبئة السياسية والأيديولوجية المؤيدة أو

المعارضة للسلطة القائمة. وهكذا يصبح التواصل متعدد اللغات أداة سياسية بامتياز تخدم جماعة أو حزباً على حساب الآخر (مؤيد ومعارض للحكومة).

تساعد الدراسة المفصلة للمفردات المستخدمة في مواقع السفارات العراقية المذكورة آنفاً على إدراك مداخل هذه الإشكالية ومخارجها إدراكاً أفضل. وهكذا نلاحظ وجود تمثيل مفرداتي خاص، وهو تمثيل لسلطة جديدة وضعيفة تبحث عن هوية وعن اعتراف بها. تشير تسميات الفاعلين والقيم التي يتم الدفاع عنها في الخطاب السياسي إلى إرادة توجه أيديولوجي جديد ينسجم مع "المرحلة الجديدة"، التي تم تدشينها رسمياً في عام ٢٠٠٣م بعد الغزو الأمريكي. يتعلق الجانب البارز في هذا التوجه الجديد باللجوء الاستدلالي إلى التاريخ بوصفه سلطة تبرير شرعي في عملية التسييس.

ما الذي نقرؤه في المعلومات المنشورة تحت رأس العنوان "About Iraq" (حول العراق)"؟

إن هذه المعلومات موجهة في المقام الأول للأمريكيين والبريطانيين، إذ أن الأمر يتعلق برأس العنوان الوحيد الذي نجده كما هو، ومن دون تغيير، في مواقع الويب الثلاثة. وإن المعلومات التي يتضمنها لم تترجم أبداً إلى اللغة العربية، ولا إلى اللغة الكردية. ولسبب بسيط هو أن عدم الترجمة هو دليل على التسييس.

وإن القادة العراقيين يأملون من وراء امتناعهم عن ترجمة هذا العنوان المتعلق بتاريخ العراق إلى اللغات الرسمية للدولة التوصل إلى نتيجة مزدوجة: التحكم بتلقي الرسالة بالتركيز على هدف واحد فقط (المتلقين الناطقين باللغة الإنجليزية) من جهة، وتجنب انتقال النزاع بين الجاليات والطوائف (بين السنة والشيعة) من العالم الافتراضي إلى العالم الحقيقي من جهة أخرى، إذ أن محتوى هذا العنوان موجه أيديولوجيا ومحدد سياسيا. والحكم متروك للقارئ.

"تاريخ العراق القديم"

إنه لمن المدهش ملاحظة أن رأس العنوان الوحيد الثابت والمثري من بين المواقع المشار إليها هو الموقع المتعلق بتاريخ العراق. إننا نعرف التلاعب بالتاريخ القومي وإعادة كتابته على أثر الاضطرابات أو الثورات الكبرى، ولكن الأمر يتعلق هنا بعملية سياسية قيد التنفيذ يخضع فيها الحدث التاريخي نفسه لتطور دائم. ففي مثل هذه الحالة تتعلق رغبة عكس هذا التطور الدائم على مستوى توطين التواصل بالضبط بالدعاية السياسية الأكثر ألفة.

تتعلق أول دلالة على هذه الدعاية السياسية بعملية البناء الداخلية لرأس العنوان الداخلي هذا. يثير تقسيم الحقبة التاريخية الطويلة إلى فترات قصيرة لدرس تطورها وشرحها مشكلة على الرغم من محاولة المحررين البقاء موضوعيين. وهكذا، تم تقسيم تاريخ العراق إلى ستة حقب: السومريون (من ٢٩٠٠ إلى ١٨٠٠ قبل الميلاد)، والأكاديون (من ٢٣٤٠ إلى ٢١٢٥ قبل الميلاد)، والعموريون (من ١٨٠٠ إلى ١٥٣٠ قبل الميلاد)، والآشوريون (من ١١٧٠ إلى ٦١٢ قبل الميلاد)، والكلدانيون (من ٦١٢ إلى ٥٣٩ قبل الميلاد).

وإضافة إلى اهتمامهم المفرط بالحقب التاريخية القديمة من تاريخ المنطقة بالنسبة إلى الحقب الأكثر حداثة، تجاهل المحررون الوجود المسيحي في العراق، في حين أنه مازالت هناك طائفة مسيحية مهمة من العراقيين. وهكذا، ليس هناك أي ذكر للحقبة الممتدة من عام ٥٣٩ قبل الميلاد حتى فتح[٢] المسلمين العراق في عام ٦٣٨ بعد الميلاد. وقد تم إهمال أكثر من ١٠٠٠ عام. وهو أمر يدعو إلى التساؤل حول موضوعية عرض تاريخي يدعي رواية أكثر من ٣٠٠٠ عام من التاريخ قبل عصرنا الحالي.

---

[٢] وردت conquête "غزو" في الأصل. (المترجم).

إن الكلمات والعبارات المنتقاة والمستخدمة في العرض المفصل الخاص بكل حقبة تدعو للتأمل. وهكذا تتعلق عبارة "لقد كان السومريون أول من" بتأكيد أيديولوجي لهوية وطنية تمتد جذورها إلى ٢٩٠٠ قبل الميلاد. زد على ذلك أن الفقرة الخاصة بالسومريين تقريظية جداً ("مهد الحضارات") بحيث لا تترك أي مجال للشك في رغبة أدلجة التاريخ هذه.

وأما العرض الخاص بالأكاديين، فإنه يهدف بوضوح إلى كتابة تاريخ منافسة تعود إلى آلاف السنين بين "أول من سكن العراق" (السومريون) و"الشعوب السامية التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية" (هكذا). وبالمثل، يؤرخ العرض الخاص بالآشوريين للمطامع العراقية في سوريا وفلسطين، وهما منطقتان شكلتا جزءاً من الإمبراطورية الآشورية حوالي القرن الثامن قبل الميلاد.

إن خاتمة القسم الأول التاريخي هذا تجعلنا نرتاب بسبب الحسرة التي توصم هذا الخطاب: "لقد سيطرت بلاد ما بين النهرين وعاصمتها بابل خلال ما يقارب قرنين ونصف على الحضارات القديمة في الشرق قبل أن يحجبها ظهور الثقافات الهندية الأوروبية".

تلخص الحقبة العربية في هذا العرض التاريخي ثلاث فقرات تشير بوضوح إلى رغبة في الاختصار تتعلق بمرحلة من التاريخ العراقي تمتد مع ذلك لأكثر من ١٤ قرناً. يبدأ المحررون بذكر الهزيمة العربية الوحيدة في العراق (في عام ٦٣٤م)، ثم يخصصون القسم الأساسي من الشرح لمشكلات انتقال الخلافة. هناك فقرة قصيرة كرست للعصر الذهبي من الخلافة العباسية التي قامت في العراق بين عام ٧٥٠م وعام ١٢٥٨م. ولكن سقوط بغداد تم تناوله بالتفصيل. وباختصار، لقد تم تأكيد الجوانب السلبية للوجود العربي في العراق تأكيداً منهجياً.

وأخيراً، لقد تمت معالجة الحقب اللاحقة بطريقة مختصرة وفظة: تمت الإشارة إلى حكم القبائل المغولية العراق خلال أكثر من قرنين (من ١٢٥٨م إلى ١٤٣٢م)، ثم إلى سيطرة القبائل التركمانية (من عام ١٤٣٢م إلى عام ١٥٠٨م) بجملة واحدة!

إن هذا الاختصار المتعمد يهدف بالأحرى إلى إبراز دخول الفرس العراق في عام ١٥٠٨م، وتأسيس المملكة الصفوية التي كانت خلال أربعة قرون المنافس المباشر للإمبراطورية العثمانية في المنطقة، لاسيما بعد استعادة الصفويين بغداد بين عام ١٣٢٣م وعام ١٦٣٨م.

إن الإشارة إلى هذه الأحداث التاريخية في مختلف المواقع الدبلوماسية العراقية تذكر بالتأكيد بالصراعات على السلطة التي يتواجه فيها على أرض الواقع أنصار إيران ومعارضوها في العراق (الفرس ضد العرب). ويمثل ذلك انعكاساً للمناقسات القديمة التي تشبه الهموم المعاصرة.

"تاريخ العراق المعاصر"

إذا كان تاريخ العراق القديم قد عولج معالجة فظة وموجهة إجمالاً، فإن الشرح المتعلق بالتاريخ المعاصر يقوم بوضوح على التواصل المتحزب والمؤدلج.

وهكذا، يهدف القسم الأول من العرض إلى إظهار مسؤولية بريطانيا العظمى عن حالة الفوضى في العراق الذي لم يتوصل إلى بناء دولة معاصرة من عام ١٩٢٠م إلى عام١٩٦٠م، وذلك بوصفها قوة منتدبة في الشرق الأوسط خلال النصف الأول من القرن العشرين. وقد تم سرد أحداث استيلاء الجيش ثم حزب البعث على السلطة بالتفصيل على مواقع الدبلوماسية العراقية، مع الإشارة إلى تعاقب الجنرالات: في عام ١٩٥٨م (الجنرال عبدالكريم قاسم)، وفي عام ١٩٦٣م

(الجنرال عبدالسلام عارف)، وفي عام ١٩٦٦م (الجنرال عبدالرحمن)، وفي عام ١٩٦٨م (الجنرال أحمد حسن البكر).

وتم تخصيص الفقرة الأخيرة من هذا العرض التاريخي لصدام حسين الذي قاد العراق من عام ١٩٧٩م إلى عام ٢٠٠٣م. وندرك في رأس الموضوع هذا العلامات الواضحة على التسييس، من خلال إشارة واضحة للتحزب في هذه المرحلة. إننا نشاهد، على العكس من الفقرات السابقة، نقداً لاذعاً وواضحاً للنظام السابق: "لقد تراجعت مكانة العراق في المجتمع الدولي باستمرار منذ عام ١٩٧٩م، وخلال عقود بفعل سياسة النظام السابق المشئومة".

لقد استخدمت أوصاف سلبية وعبارات محقرة لوصف نظام صدام حسين: مشئومة، تراجعت، كبّد، مفجعة ...". ولم يكن من الضروري أبداً أن ينتشر نقد هذا النظام الدكتاتوري بهذا الشكل على المواقع الرسمية للدبلوماسية العراقية حتى لو كان مبرراً.

إن المواقع الدبلوماسية هذه التي يطلق بعضهم عليها صفة "الطائفية" تأخذ على عاتقها الدعاية الأمريكية المتعلقة بدعم النظام السابق "الإرهاب الدولي"، وتعزز نظرية امتلاك العراق أسلحة دمار شامل، وهو اتهام نعلم اليوم ألاّ أساس له كلياً، ولكنه بقي أربع سنوات على الشبكة العالمية بعد نفي الأمريكيين أنفسهم (كان آخر دخول لمواقع الويب في شهر سبتمبر ٢٠٠٧م).

وإن العرض التاريخي الذي ينتهي بهجوم مباشر على صدام حسين (الذي تم إعدامه شنقاً في ديسمبر ٢٠٠٦م) يمكن أن يكون مدهشاً في موقع دبلوماسي: "لقد نشر صدام حسين العنف في الشرق الأوسط، وأرهب جيران العراق، وغذى عدم الاستقرار الإقليمي، واستمر في تشكيل تهديد خطير لباقي دول العالم".

ولكن المدهش أكثر في هذه الفقرة النهائية يتمثل في التبرير الذي تقدمه الدبلوماسية العراقية للغزو الأمريكي: "لقد أدى عدم تنفيذ صدام حسين المستمر قرارات مجلس الأمن خلال ١٢ عاماً إلى غزو التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة العراق في ٢٨ يونيو ٢٠٠٤م". إن الجملة الأخيرة في هذا العرض التاريخي (حول استعادة السيادة) مدهشة على الأقل عندما نعلم وضع العراق الفعلي منذ التاريخ المشار إليه (حكومة تحت الوصاية الأمريكية).

والواقع أن كل القسم المتعلق بتاريخ العراق المعاصر مرفوض من وجهة النظر المحلية (العراقية)، ولهذا لم تتم ترجمة هذا العرض التاريخي الشامل أبداً، ولم يتم تكييفه باللغة العربية. والحقيقة أنه غير موجود في النسخة الإنجليزية من مواقع الدبلوماسية العراقية.

إننا ندرك إذن أن المضمون المنشور جدلي جداً، وأن نشره باللغة القومية المطلقة (العربية) أمر حساس جداً. وبالمقابل، رأى المحررون في الموقع أن هذه الشروح مقبولة تماماً باللغة الأجنبية (الإنجليزية)، وفي أوساط المتلقين الناطقين باللغة الإنجليزية الذين تقود جيوشهم الحرب في العراق.

وهكذا، يبدو من الواضح أن غياب الترجمة (أو عدم الترجمة) في هذا النوع من المواقع دليل واضح على التسييس، وعلى التحيز في التواصل.

(١,٥) مسألة وجهة النظر الترجمية

تبرز هذه الملاحظات وجود وجهة نظر ترجمية في عملية توطين مواقع تتميز بمضمون سريع التأثر بالسياق السياسي. يمكن أن تؤدي وجهة النظر هذه في حدها الأدنى إلى التكييف الموجه لبعض المقاطع النصية، وفي حدها الأقصى إلى حذف فقرات كاملة (عدم ترجمة مقاطع نصية موجودة في الأصل).

ولكن وجهة النظر الترجمية تتعلق أيضاً، على مستوى الجملة، بطريقة تحرير النص باللغة القومية واللغة الأجنبية. إن اختيار بعض الكلمات والعبارات، التي تقدم ظاهرياً على أنها متعادلة، يشير غالباً إلى وجهة نظر تواصلية منحازة، وإلى طابع أيديولوجي لا يتركان مجالاً للشك في موقف محرر الرسالة أو العامل على توطينها على موقع الويب. هذه على سبيل المثال حالة رأس العنوان "العراق الجديد"، الموجود في النسختين الإنجليزية والعربية من موقع وزارة الخارجية العراقية، وهي الوزارة التي تمارس نظرياً رقابة على مواقع السفارات العراقية التي تم تحليل مضمونها آنفاً.

لنقرأ بانتباه ما كتب بالعربية عن "العراق الجديد": "لقد بدأت مكانة العراق في المجتمع الدولي بالتراجع منذ حوالي ثلاثة عقود، بسبب سياسة النظام السابق الخارجية العبثية. وقد أثر الاستبداد الذي مارسه صدام حسين في الشعب العراقي، وفي علاقات العراق الدولية بفعل الحروب المدمرة، والمُخالَفة الواضحة للقانون الدولي، ودعم الإرهاب الدولي، وإنتاج أسلحة الدمار الشامل".

يقدم النص الإنجليزي نسخة شبه معادلة لهذه الترجمة. وإنه لمن المتوقع منطقياً أن يكتب النص الأصل لهذا النقد اللاذع للنظام السابق باللغة القومية، أي بالعربية، وأن يترجم بعد ذلك إلى الإنجليزية، وهي اللغة التي تقوم بدور لغة التداول. بيد أن ما حدث هنا هو العكس تماماً: لقد تم تحرير النص الأصل أولاً بالإنجليزية، ثم ترجم إلى العربية. زد على ذلك أن الاتهام العنيف للرئيس العراقي السابق يكرر حرفياً مقاطع نصية من مواقع رسمية أمريكية تتعلق به. وقد استفادت الحكومة العراقية المؤقتة من ذلك لتكتسب شرعية على حساب الحكومة السابقة، وهي عملية مشكوك فيها على الأقل.

وأما فيما يتعلق بالتواصل، فمن الواضح أن عكس اتجاه الترجمة دليل هنا على التسييس. إن النسخة العربية هنا هي ترجمة للنسخة الأجنبية (الإنجليزية). وهذا مدهش من وجهة النظر المحلية (العراقية) لاسيما أن اللغة الإنجليزية هي،

فضلاً عن ذلك، لغة "الغزاة" و"المحتلين"، وفق المصطلح الذي تستخدمه أغلبية الأطراف العراقية.

إن هذا الخلل في إدارة التواصل متعدد اللغات موجود في رأس عنوان لا يقل حساسية، وهو "أمن العراق"، الذي أقدم بعض المقتطفات منه، المترجمة ترجمة حرفية انطلاقاً من النسخة العربية من الموقع: "يبقى العراق بصفته جزءاً من بعض البقاع المقدسة في الإسلام متمسكاً بهويته الإسلامية، فقد عملت وزارة [الخارجية] على تسهيل السياحة الإسلامية وتعزيز التبادل الثقافي".

يعرف المطلعون على أحوال العراق أن الأمر يتعلق فقط بالبقاع المقدسة لدى الطائفة الشيعية، وأن "السياحة الإسلامية" المشار إليها هنا هي سياحة الإيرانيين الذين يرغبون في زيارة العراق. باختصار، إننا نفهم من دون عناء من خلال موقع الدبلوماسية العراقية أن البلد تقوده حكومة مؤيدة لإيران، وذات طابع طائفي.

زد على ذلك أنه يمكننا أن نقرأ تحت رأس الموضوع "أولويات" نصاً يركز على الإرهاب: "إننا نواجه الإرهاب الدولي الذي يريد تقويض العملية الديمقراطية، وعرقلة مسيرتنا نحو السلم والازدهار. إن الاستقرار في العراق له نتائج على السلام في المنطقة، وإن الفشل في الحرب على الإرهاب له نتائج سيئة تتجاوز حدود بلدنا... ولهذا السبب فإننا نعمل إلى جانب شركائنا في قوى التحالف على حماية حدودنا، وعلى المحافظة على السلم داخل الدولة...".

إن طريقة تقديم الوجود الأمريكي في العراق وتبريره تجعلنا مرة أخرى حائرين (الحرب على الإرهاب)، لاسيما عندما نعرف أنه لم يكن هناك أي أثر في العراق لهذا "الإرهاب الدولي" المزعوم قبل التدخل الأمريكي.

إن المقارنة مع النسخة الإنجليزية من النص تؤكد أنه تم التفكير بالنص وبكتابته بالإنجليزية أولاً، وفق وجهة نظر أمريكية، قبل أن يترجم ترجمة شبه حرفية إلى العربية، من دون أي شكل من أشكال التكييف.

ولكن وجهة النظر العراقية غائبة كلياً على كل حال في هذه النسخة المعربة من الموقع. وهذا يقودنا إلى طرح مسلمة مفادها أن غياب وجهة نظر ترجمية محلية (أو قومية) في هذا النوع من التواصل دليل واضح على التسييس. والحقيقة أن إمكانية التكييف أصبحت هنا تحت رقابة السلطة المُهيمنة. باختصار، يبدو التواصل متعدد اللغات هنا خاصية الهيمنة السياسية.

(١,٦) الترجمة وعلم السياسة

تتضمن عمليات التسييس من وجهة نظر المترجم–التواصلي، بهدف تأمين فعاليتها، بعداً لغوياً وبلاغياً حاسماً. يمكن إدراك هذه الملاحظة من خلال مخططات التكييف اللغوية المستخدمة في مواقع الدبلوماسية العراقية التي تم تحليل مضمونها آنفاً. وإن التأمل في التواصل متعدد اللغات من وجهة النظر هذه يقع عند مفرق طرق بين النظرية الترجمية والعلوم السياسية، لأن الترجمة مُسيسة.

وعلى الرغم من أن علم السياسة لم يؤثر بعد في الدراسات الترجمية تأثيراً يستحق الذكر، فإننا نلاحظ توجهاً أكثر فأكثر وضوحاً نحو تسييس الترجمة منذ عام ٢٠٠١م. وهذا التوجه ليس بالضرورة تاماً وغالباً في كل مجالات التواصل. ونجد بين المجالات التي تبدو على وجه الخصوص أكثر انفتاحاً على هذه الديناميكية الدراسات الثقافية حول الترجمة والتكييف، سواء تعلق الأمر بفهم خصوصية اللغات أم بعمل الثقافات، أم أيضاً بأنماط التلقي في الدراسات حول ما بعد الحقبة الاستعمارية.

لقد أصبحت العمليات الإدراكية في الترجمة والتكييف في كل هذه المجالات في مثل أهمية النصوص المترجمة نفسها. وأصبحت مواقف المترجمين والمنتجات الترجمية تدرس على ضوء علاقات الهيمنة الأيديولوجية، في حين أن عمليات النقل الثقافية بدأت تخضع للدراسة من خلال علم النفس السياسي.

ولكن ينبغي ألا نشك في ذلك: إن اللجوء إلى شبكات التحليل ومناهج البحث المنبثقة عن العلوم السياسية يبقى إشكالياً. ويثير مسائل مهمة تتعلق بالطريقة التي يفكر بها المترجمون في عملهم في مواجهة نصوص حساسة أو مُسيسة: هل السياسة هامشية في عرف المترجمين وفي ممارستهم؟ وما الإشكاليات الترجمية التي يمكن أن توضحها المقاربة السياسية توضيحاً أفضل؟ وما القيمة المضافة المتوقعة بالنسبة إلى التأمل الأخلاقي في الترجمة؟ وهي أسئلة كثيرة توضح أن المدخل الأيديولوجي كما يفهمه علماء السياسة، أي النظر إلى المنتجات الفكرية على أنها ثمرة علاقات قائمة على الهيمنة السياسية، يمكن أن يوضح عمليات الترجمة في علاقاتها مع المحيط السياسي والاجتماعي.

إن تحليل البعد السياسي للترجمة وللتواصل، بشكل أكثر عمومية، مفيد للمترجم المهني لأنه يحميه من أن يكون وسيلة فظة جداً. وإنه يجعل منه مترجماً حاذقاً وماهراً نوعاً ما.

(٢) الترجمة بوصفها تواصلاً مُوجَّهاً

توضح الحالة العراقية عدم وجود ترجمة حيادية. تعكس كل ترجمة التزاماً فكرياً، أو خياراً أيديولوجياً، أو أيضاً انتقاء لفاظياً، أو بكل بساطة توجهاً تواصلياً معيناً. ويكشف البعد التعاقبي للكلمات وما تظله من معان عن ميل المترجم لرؤية معينة للعالم وللأشياء، حتى عندما تبدو الترجمة موضوعية.

يصبح المترجم في زمن الحرب أيديولوجياً كامناً، أي قبل كل شيء ناقلاً للأفكار. ولكن ليس أي نوع من الأفكار: توضح التجربة أن نفسه توسوس له أحياناً بنقل الأفكار التي تناسبه فقط، والتعبير عنها بالكلمات التي يختارها. إنه ينتقي أيضاً الأعمال التي يريد ترجمتها، ويصوغ الأصل على هواه، ويوجه تلقي النصوص من خلال خيارات لسانية ودلالية ليست بريئة أبداً، وقابلة للنقاش دائماً. وقد حللت منى بيكر Mona Baker في كتابها الموسوم بعنوان *الترجمة والصراع Translation and Conflict* (٢٠٠٦م) مداخل هذه الإشكالية ومخارجها تحليلاً مفصلاً.

ويبدو من الواضح اليوم أن مسؤولية المترجم كبيرة بالنظر إلى التحديات السياسية والحضارية. والحقيقة أن المترجم يبني من خلال كلمات اللغة العالم الحقيقي للبشر الذين يصارعون أحياناً من أجل البقاء، وهذه هي حالة العديد من مناطق العالم (أفغانستان، والعراق، إلخ). ولكن أساس هذا النشاط الجوهري والخطر يبقى بحاجة للتحديد على مستوى التواصل.

(٢,١) تناذر برقية إيمس Ems

نبقى أحياناً مذهولين إزاء عملية تقود إلى شن الحروب. يؤكد البعض أسباباً سياسية إقليمية، وقومية أو دولية. ويشير البعض الآخر بإصبع الاتهام إلى المنظمات الراديكالية ومقاتليها المتطرفين. ولكن من يتابع تسلسل الأحداث بدقة متناهية سوف يفاجئ بلا ريب من اكتشاف أن سبب العنف يعود غالباً إلى بيانات مكتوبة وخطب تدعو للقتال. إننا نتذكر العملية التي أدت إليها برقية إيمس Ems في عام ١٨٧٠م، والتي قادت إلى الحرب بين فرنسا وألمانيا.

كان غيوم الثاني Guillaume II ملك بروسيا قد كتب النسخة الأولية من هذه البرقية في شهر فبراير/شباط من عام ١٨٧٠م، جواباً عن طلب سفير نابليون الثالث

الملح لكي يتخلى عن مطالبته بعرش أسبانيا الذي كان شاغراً آنذاك. وما أن وصلت البرقية إلى يدي بسمارك Bismark حتى قام بإعادة صياغة النص النهائي ونشره، الأمر الذي استفز الفرنسيين في الصحافة وفي أوساط السفارات الأجنبية، والذي أدى إلى عملية ١٨٧٠م التي تعذر التراجع عنها. وسوف أورد في ما يلي النص الدقيق للبرقية المذكورة كما نشرها بسمارك، وهي البرقية التي نشرت في طبعة خاصة في ١٣ يوليو/تموز من عام ١٨٧٠م في ألمانيا وبريطانيا. وقد أعادت الصحافة الباريسية نشرها بتاريخ ١٥ يوليو/تموز وقدمتها على أنها إهانة لفرنسا. وأما العبارة التي اعتبرت إهانة في النص فهي التالية: "lui a fait dire par l'adjudant de service" ("وقال له عن طريق معاون رئيس الخدم").

برقية إيمس Ems

برلين، ١٣ يوليو/تموز مساء

بعد أن نقل الأسبان رسمياً إلى الحكومة الإمبراطورية الفرنسية خبر عدول ولي عهد آل هوهينزولرن Hohenzolern، طلب السفير الفرنسي أيضاً في إيمس من جلالة الملك أن يسمح له بأن يبرق إلى باريس بأن جلالة الملك يتعهد بأن يرفض في المستقبل دائماً موافقته إن جدد آل هوهينزولرن ترشحهم.

وقد رفض جلالة الملك على إثر ذلك استقبال السفير الفرنسي مرة ثانية، وقال له عن طريق معاون رئيس الخدم إن جلالته لم يعد لديه شيء آخر يقوله له.

كان الأمر في الحقيقة يتعلق على وجه التحديد، في هذه الحالة الدقيقة، بترجمة سيئة تُعزى كلياً إلى جهل لا يصدق باللغة الألمانية: تعني كلمة "Adjudant" في

الألمانية "Aide de camp" (ضابط ذو رتبة عالية، ولم يكن الضابط في تلك الحالة سوى الأمير رادزويل Radziwill)، ولا علاقة لها بكلمة "Adjudant" في الفرنسية (ضابط صف، جندي ذو رتبة ثانوية). ولكن ترجمة هذه المعلومة ونشرها للرأي العام العالمي بهذه الطريقة صدم إحساس القادة الفرنسيين الذين أعلنوا الحرب بتاريخ ١٩ يوليو/تموز. وليس إذن من المبالغة التأكيد أن الحرب التي أنهت الإمبراطورية الثالثة في فرنسا سببها خطأ عادي في الترجمة (أصدقاء مزيفون faux amis).

إن قضية برقية إيمس Ems مثال نموذجي على الترجمة السيئة التي يسبب مضمونها نزاعاً. والحالة هذه أن بسمارك لم يتلاعب فقط بنص غيوم الثاني الأصل ليجعله مُهيناً أكثر، ولكن المترجم جعله مُخزياً صراحة بالنسبة للفرنسيين، أو على الأقل مفهوماً بهذه الطريقة في ذلك العهد.

إن ترجمة أقوال البعض والبعض الآخر في زمن الحرب لا تستخدم في الواقع إلا لدعم مجموعة من الأحاديث الاستدلالية المنفردة في إطار سياسة عدم الوفاق التي تعمق فجوة الحرب التي نعاني منها من دون تطلع للمستقبل. وإن تحليل التضليل في الترجمة في هذا الإطار يعني توضيح وسائل التلاعب، وتحديات التواصل الذي يترجم بهذه الطريقة. وإن التساؤل عن سبب هذا التضليل يساعد على تقديم وجهة النظر الأخلاقية في المفهوم التداولي للتواصل متعدد اللغات.

(٢,٢) إرهاب الترجمات الرديئة

لقد قدمت الحرب في العراق منذ عام ٢٠٠٣م كما من الأمثلة على الترجمات الرديئة التي كان لها نتائج خطيرة أحياناً. ومن هذه الأمثلة ترجمة رسالة زعيم القاعدة في العراق في نهاية عام ٢٠٠٥م التي تشكل حالة خاصة في الترجمة الموجهة، لا بل غير النزيهة التي كانت عاملاً مساعداً على العنف الطائفي على أرض الواقع.

كان أبو مصعب الزرقاوي زعيم القاعدة في العراق قبل وفاته في غارة أمريكية في يوليو/تموز من عام ٢٠٠٦م سبب ذعر الأمريكيين. وقد شكلت خطبه النارية علامة يهتدي بها الجهاديون في العراق، وفي الشرق الأوسط. وقد ظهر مرة واحدة قبل شهرين من وفاته في تسجيل فيديو في الصحراء العراقية بصحبة مساعديه الرئيسين. وقد كان من عادته استخدام التواصل الكتابي أو التسجيل الصوتي تجنباً لتحديد مكانه السري.

كان الزرقاوي يذيع كعادته في كل عام، بمناسبة اعتداءات ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، تسجيلاً صوتياً كان أنصاره يترقبونه بفارغ الصبر، لأنه كان يتضمن بشكل عام الإعلان عن عمليات جديدة للقاعدة في العراق.

لقد تم نشر التسجيل الصوتي الذي يهمنا هنا في كل المنتديات الإسلامية والجهادية في ١٤ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٥م. ويتضمن التسجيل خطاباً بالعربية الأدبية، والمتقعرة، والمحاكية لأسلوب *القرآن الكريم*. أي أن الخطاب لم يكن سهل الفهم بالنسبة إلى عامة الناس، وحتى بالنسبة للمتكلمين باللغة العربية الأم، نظراً للاختلافات الواضحة بين العربية الأدبية واللهجات العامية في الدول العربية.

ومع ذلك، نشرت ترجمة إنجليزية في اليوم التالي لإذاعة التسجيل الصوتي، وحظيت باهتمام إعلامي وصحفي غير مسبوق. وتناقلتها واستشهدت بها معظم وسائل الإعلام، لأن خبراء محاربة الإرهاب اعتقدوا أنهم اكتشفوا تغييراً إستراتيجياً مهماً لدى القاعدة. وقد أعلن الأمريكيون على وجه الخصوص في كل مكان أن الزرقاوي قرر إعلان "الحرب الشاملة ضد الشيعة" في العراق، وأنه دعا إلى قتلهم في كل مكان وجدوا فيه.

كانت وسائل الإعلام الأمريكية المصدر الوحيد المتوفر لهذه المعلومة، ولكنها لم تكن المصدر الأول، لأن تلك الوسائل كانت تستقي معلوماتها من العسكريين

المهتمين آنذاك بتضخيم أهمية القاعدة في العراق لتتمكن من تبرير "حربها ضد الإرهاب"، ومتابعتها.

باختصار، لقد تم نشر ترجمة التسجيل الصوتي المشهور إلى الإنجليزية بكثرة بلا مقابل، وتم الاستشهاد بالأصل العربي بطريقة مختصرة، إذ أنه اقتصر على المقاطع التي كانت تبدو الأكثر أهمية بالنسبة للعسكريين. ولم يتأكد أي وسيط إعلامي من سياق الشواهد كما أنه لم يستمع إلى التسجيل الصوتي كاملاً، ليتأكد على الأقل من صحة الترجمة التي نشرتها أجهزة المخابرات. واكتفت جميع وسائل الإعلام بتكرار الترجمة الإنجليزية المختصرة فحلت محل الأصل في الأذهان، وفي الواقع.

ولولا تأثير تلك الترجمة في القرارات السياسية والعسكرية التي اتخذتها قوات التحالف والحكومة العراقية على أرض الواقع لما حظيت باهتمام المختصين. والحقيقة أن تعلق القوات الأمريكية والسلطات العراقية بالمضمون الضيق المزعوم لخطاب الزرقاوي، وتوقعها الحرب الشاملة التي دعا إليها، جعلها تتخذ تدابير محلية أدت إلى إعادة تسليح المليشيات الشيعية على نطاق واسع فهيأت بذلك مادياً كل الظروف المواتية لاندلاع حرب طائفية كان الجميع يخشاها. وقد تحققت التوقعات بفضل رداءة الترجمة التي تم تناقلها على نطاق واسع.

إنه لمن السهل البرهنة على أن هذه الترجمة التي اعتبرت منطلقاً للعمل لم يتم فقط التلاعب بها على عدة مستويات ولكنها كانت فضلاً عن ذلك تتضمن أخطاء لا تصدق لا يمكن أن تكون عرضية. إن التلاعب فيها واضح، وإن الحرص على خلط الأوراق فاضح.

ينبغي قبل كل شيء التركيز على حقيقة أن هذا النمط من الوثائق التي تمثل تحديات سياسية كبيرة يستوجب العمل مباشرة انطلاقاً من النص الأصل (العربي) وليس من الترجمة (الإنجليزية) التي لا يمكن إلا أن تكون ضعيفة بسبب السياق:

من الذي قام بالترجمة؟ ولصالح من؟ ومن الذي نشر الترجمة مجاناً؟ ولأي هدف؟ إلخ.

تكمن المشكلة الحقيقية في تسجيل الزرقاوي المؤرخ في ١٤ سبتمبر/أيلول في تسميات مختلف الأطراف الفاعلة في النزاع العراقي. وقد نقل مترجم التسجيل مختلف التسميات "الشيعية"، في جهل خطير أحياناً لمعناها التاريخي والثقافي والديني، في حين أنها تتسم بدقة كبيرة.

يكفي لتوضيح بطلان هذه الترجمة العودة إلى النص الأصل وتوضيح الكلمات العربية المستخدمة في كل حالة. يساعد ذلك على فهم المقصود فهماً دقيقاً.

وهكذا، تساعد قائمة ورود كلمة "شيعة" (في الترجمة)، ومقابلها الدقيق في النص العربي، على تسجيل الملاحظات التالية:

إن الكلمة الدقيقة المستخدمة في اللغة العربية في المرة الأولى هي روافض "Rawâfidh" وليس "شيعة"، وإن العبارة بالعربية هي "إخوان الروافض".

وإن الكلمة المستخدمة في المرة الثانية ليست "شيعة"، وإنما "أحفاد ابن العلقمي". وفضلاً عن ذلك، لم يترجم المترجم الكلمة العربية "أحفاد" في حين أن هذه الكلمة ترد ثلاث مرات في النص ("حكومة أحفاد ابن العلقمي").

وإن الكلمة المستخدمة أيضاً في المرة الثالثة ليست "شيعة" وإنما "روافض" (انظر الشرح المفصل لاحقاً).

وبالمثل، إن الكلمة المستخدمة في الدقيقة الثامنة من التسجيل هي "الصفويين" في حين أن المعادل الذي يقدمه المترجم هو كلمة "الشيعة"، وهذا خطأ.

وأما في الدقيقة الرابعة عشرة، فإن العبارة المستخدمة في العربية هي "الشيعة الروافض". وتجدر الإشارة هنا إلى أن الزرقاوي يستخدم بوضوح للمرة الأولى في خطابه كلمة "شيعة"، ولكنه لا يستخدمها بمفردها. والحقيقة أن الكلمة تأتي مقرونة

بتوضيح هام "الشيعة الروافض"، ما يعني استبعاد الجماعات الشيعية الأخرى (إن كلمة "روافض" اسم-صفة في العربية تحدد هوية الكلمة السابقة، وهي هنا "الشيعة").

ولم يكتف المترجم بعدم ترجمة كلمة "روافض"، لكنه عممها على جميع الشيعة، وهو تعميم غير موجود في النص الأصل. وقد شوه بذلك كلياً معنى الجملة التي تتسم مع ذلك بأهمية أساسية.

وأما في الدقيقة السادسة عشرة من التسجيل فإن الكلمة المستخدمة في اللغة العربية ليست "شيعة"، وإنما "الروافض الصفويين". وهنا أيضاً، لم يترجم المترجم أبداً الكلمات الحقيقية المستخدمة في اللغة العربية (الروافض الصفويين). وقام بما هو أسوأ من ذلك فأوّل معنى هذه العبارة تأويلاً خاطئاً كلياً.

لقد جاء بعد تلك العبارة في الخطاب الأصل عبارة أخرى تحدد معناها توضيحاً دقيقاً: "حكومة ابن العلقمي". وفضلاً عن ذلك، يبدو ذلك منطقياً أكثر، إذ لا يوجد في الحكومة العراقية سوى "الشيعة"، ولكن تم وصفهم جميعاً بأنهم "أحفاد ابن العلقمي" لأنهم يُعتبرون "متعاونين" (مع الاحتلال). وقد قام المترجم هنا أيضاً بتشويه المعنى مستخدماً في ترجمته كلمة "الشيعة".

خلاصة القول: هناك خمس تسميات في النص تقابل كلمات مختلفة، وغير مترادفة في اللغة العربية، ولكنها ترجمت جميعها بكلمة "شيعة".

لنتابع تحليلنا لفهم مداخل هذا التلاعب ومخارجه فهما أفضل:

١- تشير عبارة "أحفاد ابن العلقمي" في اللغة العربية بعامة إلى "المتعاونين مع العدو"، أي إلى العراقيين الذين يساعدون قوات الاحتلال الأمريكية، بغض النظر عن طائفتهم أو عرقهم. وتستخدم هذه العبارة التي تحط من الشأن للإشارة أيضاً إلى العرب السنة والأكراد الذين يتعاونون مع الأمريكيين. وإذا أردنا نقل المعنى الحقيقي لهذه التسمية، فإن الترجمة الدقيقة لن تكون "الشيعة"

وإنما بصورة أكثر دقة "المتعاونون مع العدو" collabos. وتفسير ذلك أن ابن العلقمي كان وزير المعتصم (١٢٤٢-١٢٥٨م) آخر الخلفاء العباسيين. وهو مكروه في التاريخ الوطني العراقي لأنه تعاون مع جيش العدو (التتار في ذلك الوقت)، وسلم العراق عمداً، لاسيما بغداد، للغزاة الأجانب. كان زعيم التتار قد وعده بتسميته خليفة مكان الخليفة المخلوع ما أن تقع بغداد تحت سيطرته. وقد وضع ابن العلقمي في الإسطبلات للعناية بخيول أسياده الجدد. ويعتبره العراقيون منذ ذلك الوقت رمزاً للمتعاون مع العدو الذي يخون بلده ليرضي طموحاته الخاصة، والذي يسقط في دسائسه.

٢- تعني كلمة "الصفويين" في العربية بصورة دقيقة "أنصار المذهب الصفوي". وتشير إلى الإيرانيين بعامة، أي إلى شيعة إيران. والترجمة الدقيقة لكلمة "صفويين" ليست "الشيعة" وإنما "الإيرانيين". وتفسير ذلك أن "الصفويين" هم الشيعة الذين يتبعون مذهب رجل دين مسلم من العصور الوسطى يسمى صفي الدين الأردبيلي (توفي في عام ١٣٣٤م). وقد أسس أتباعه (الصفويون) أول دولة شيعية في إيران، وأطلق عليها اسم "دولة الصفويين". وقد استمرت هذه الدولة من عام ١٥٠٢م إلى عام ١٧٣٦م، قبل أن تسقط تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية. ومؤسس الدولة هو الشاه إسماعيل الأول، وعاصمتها مدينة تبريز. وتنتسب الحكومة الإيرانية الحالية إلى هذا الجزء من التاريخ لأنها المرة الأولى التي تتبنى فيها الدولة المذهب الشيعي مذهبا رسمياً.

٣- تعني كلمة "روافض" في العربية حرفياً "الرافضين، الذين يرفضون". وتشير إلى "الشيعة الرافضين"، أي "الشيعة الذين لا يعترفون بثلاثة من الخلفاء الراشدين في الإسلام (أبو بكر، وعثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب). والترجمة الدقيقة لكلمة "روافض" (أو رافضة) ليست "الشيعة" chiites وإنما "الرافضون"

négateurs. وفضلاً عن ذلك، استخدمت كلمة "روافض" في خطاب الزرقاوي مقرونة بكلمات أخرى حسب السياق: "الشيعة الروافض"، و"الروافض الصفويين". وتجدر الإشارة إلى أن "الشيعة الروافض" هم فئة من الشيعة، ولا يشملون مجمل المسلمين الشيعة في العراق وفي العالم. وهناك، فضلاً عن ذلك، جماعات شيعية (مثل جماعة مقتضى الصدر) حاربت الأمريكيين في العراق، مثل المتمردين السنة. وتفسير ذلك أن كلمة "رافضة" أو "روافض" تشير في العربية إلى عدة جماعات من المذهب الشيعي. تاريخياً، ظهرت "الرافضية" أول ما ظهرت في الكوفة العراقية، ثم انتقلت إلى قم في إيران حوالي نهاية القرن الثامن. وقد أصبحت مدينة قم عندئذ معقل "الرافضية" التي انتشرت بعد ذلك في مدينة الري[٣]، وفي نيسابور في القرنين التاسع والعاشر، قبل أن تصبح المذهب الرسمي لأول دولة شيعية في إيران في عهد الصفويين (١٥٠٢-١٧٣٦م). وقد اتصفت الرافضية منذ بداياتها بمواقف متطرفة معادية للسنة. ويجمع أهم رجال دين الرافضة، مثل زُرارة بن أعين (توفي سنة ٧٦٧م) وهشام ابن الحكم (توفي سنة ٧٩٥م) بين فعالية أيديولوجية معادية للسنة وبين نضالية سياسية قائمة على مفهوم "التقية" (الكتمان dissimulation) الذي يعد أساس هذا التيار الطائفي.

وهكذا، هناك عدة جماعات شيعية في الإسلام (الاثنا عشريين Duodécimains، والإسماعيليين، والإماميين، والزيديين، إلخ)، ولكن الرافضة هم

---

[٣] الري Rayy هي مدينة تاريخية تقع بالقرب من طهران في إيران. فتحت الري في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وذلك بقيادة نعيم بن مقرن. ويقال أن زرادشت قد خرج منها. كما ينسب إليها عدد من علماء المسلمين ومنهم فخر الدين الرازي صاحب تفسير مفاتيح الغيب. والكيميائي محمد بن زكريا الرازي والخليفة العباسي هارون الرشيد. (المترجم).

الجماعة الشيعية الوحيدة التي تعارض معارضة جذرية كل أركان العقيدة لدى السنة. وقد ميز الكتاب السُنّة في كتاباتهم منذ بداية التاريخ الإسلامي بين "الرافضة" و"الشيعة". تشير كلمة "شيعة" في العربية إلى موقف مؤيد لعلي بن أبي طالب وليس إلى بدعة، في حين أن كلمة "رافضة" تشير إلى البدعيين الذين يعارضون معارضة شرسة المذهب السني بوصفه عقيدة. ويصفهم كتّاب العصور الوسطى، ويشمل ذلك الشيعة، بأنهم متطرفون (غلاة)، لاسيما بسبب تبجيلهم شخصية علي واعتباره إلهاً. خلاصة القول: ينبغي أن تكون حذرين جداً عندما نترجم نصوصاً تتسم بوجهة نظر دينية، لأن المصطلحات ليست شفافة ولا متعادلة أبداً. وفضلاً عن ذلك، ينبغي ألا نعتمد على النسخة المترجمة فقط، وأن نعود دائماً للنص الأصل لنتأكد من المعنى المستخدم، وإن لم يكن ذلك ممكناً، أن نحرص على مقارنة مختلف ترجمات النص التي أنجزها مترجمون مختلفون.

إن الطريقة الوحيدة في الواقع لإنجاز عملنا بصورة صحيحة تتمثل في القيام بترجمة تحليلية حقيقية (غيدير Guidère، ٢٠٠٤م). تقوم الترجمة التحليلية على إرهاف حس المترجم المهني بالبعد السياسي للغة لكي يستطيع تجاوز مجرد حل شفرة العلامات اللغوية. ينبغي عليه أن يكون أكثر انفتاحاً على المعنى الضمني للكلمات، وأكثر انتباهاً للمضمون الأيديولوجي الذي يمكن أن تنقله الرسالة من دون علمه. ينتج عن هذا الوعي بأهمية التحليل مفهوم تحليلي للترجمة.

(٢,٣) الترجمة التحليلية والتواصل متعدد اللغات

إن النص المراد ترجمته في إطار التواصل متعدد اللغات ليس ببساطة جمع كلمات أو عبارات موسومة ثقافياً، وينبغي أن ينظر إليه على أنه قالب متسق وشبه نهائي من *المفاهيم conceptions*، و*الإدراكات perceptions*، و*المقاصد intentions*. والنتيجة،

ينبغي إيجاد معادلات متساوية من حيث القيمة لمختلف هذه المستويات، وليس البحث عن تعادلات معجمية على مستوى كلمات اللغة، أو أيضاً عبارات الخطاب.

يبرر ذلك أن الترجمة توافق موقفاً إدراكياً خاصاً حسب الحالات، وتلزم المترجم أمام النص بعملية ذهنية تقوده إلى تفضيل معادل على آخر. وإنه لمن المهم بالنتيجة أن نعرف الاختلافات بين الترجمات المنجزة تحت تأثير إدراك خاص في لحظة معينة والترجمات المنجزة في سياقات أخرى. فالترجمة يمكن أن تكون انعكاساً للإدراكات المضمنة في النص أو موشوراً مشوهاً يعكس التمثيلات الشخصية للمترجم الذي ينجز العمل.

ينبغي التذكير في هذا الصدد بأن المقاربة التقليدية لا تثير المسألة الظاهراتية بالتأكد من أهمية العوامل الإدراكية وغير الإدراكية الملائمة. وعلى العكس من ذلك، تساعد الترجمة التحليلية بشكل منفصل على دراسة التأثيرات المستقلة عن إدراك المترجم على القرارات المتخذة في أثناء الترجمة فتعتبر نتائج المتغيرات الأخرى ثوابتاً.

إن دراسة معمقة لتأثير إدراك المترجم على مختلف مراحل العملية الذهنية في الترجمة يوضح وجود علاقة بين أيديولوجيا المترجمين ونمط الترجمة المنجزة. وهكذا، توضح بحوثي على سبيل المثال أن دين المترجم يشكل عاملاً مهماً في "توجه" الترجمة. يلاحظ في الواقع اختلافات معبرة بين نمطين من الترجمات (الموجهة وغير الموجهة) عندما لا يكون المترجم منحدراً من الطائفة الدينية التي يتعلق بها النص. وهكذا رأينا أن مترجماً عربياً نصرانياً يترجم بطريقة موجهة نصوصاً تتعلق بالإسلام، أو أيضاً مترجماً شيعياً يترجم نصوصاً سنية بطريقة مغلوطة كلياً.

وأما بخصوص مميزات الترجمة الموجهة فإن الزلات التي تمت ملاحظتها تميل للتكرار من نص لآخر، ومن مترجم لآخر. ويقع فيها بشكل عام أعضاء ينتمون للوسط الاجتماعي المهني نفسه أو للطائفة الإثنية أو اللغوية نفسها.

تنطوي الترجمة الموجهة على عدة جوانب: أولاً، الترجمة من دون الأصل (وهي حالة متطرفة وفاضحة)، والنسخ الأيديولوجي للأصل (نقل الدعاية على علاتها)، والترجمة العاطفية (تَدَخُّل المترجم غير المتوقع في النص).

هناك على سبيل المثال اختلافات معبرة على مستوى المفاهيم، والإدراكات، والمقاصد المنسوبة للكاتب الأصل. وإنه لمن المهم إذن أن ندرس هذه العوامل في إطار مقاربة تحليلية للترجمة بهدف تقويم نتائج الإدراك على قرارات المترجم.

إن الاهتمام بالدقة والمطالبة بها أمران واضحان في ترجمة النصوص الحساسة. ولكن ما الذي يخفيه هذا المطلب من وجهة نظر تواصلية؟ وبعبارة أخرى، ما المعايير التي ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار في الحكم على جودة الترجمة؟

إننا نعرف معطيات النقاش المتعلقة بتقويم الترجمات، واختلاف وجهات النظر في هذا الصدد. تتعلق الحجج والمعايير التي تؤخذ بعين الاعتبار بوجهة النظر التي يتم تبنيها: يعني تفضيل النص الأصل أن المعيار الأساسي هو أمانة الترجمة ودقتها، إن لم نقل حرفيتها بالنسبة إلى الأصل. ولكن تفضيل وجهة نظر اللغة الهدف يعني أن المعيار الذي سوف يتم اختياره هو التعبيرية expressivité، وتكييف الترجمة "لتناسب" توقعات الجمهور المتلقي.

إن أول صعوبة نواجهها في الترجمات الموجهة هي أنها تقوم على وثائق من جميع الأنواع، تنتمي إلى أجناس مختلفة اختلاف الأدب الدعائي، والمواعظ الدينية، والرسائل اليومية، أو وصف الأشخاص والجماعات. فكيف نُخضع هذه الأنماط المختلفة من الوثائق لمعيار التقويم نفسه؟

إن تصورنا المسألة من وجهة النظر النوعية والتصنيفية، أي باعتبار طبيعة النصوص المراد ترجمتها، فإنه يتعذر حل المسألة. ولكن إذ أخذنا الهدف الأول لهذه الترجمات، أي غاية العمل، فإنه بوسعنا وضع معايير تقويم مقبولة.

والحقيقة أن هذه الترجمات لا تهدف قبلياً إلى التعبيرية (جمال اللغة)، ولا إلى تأكيد شكل خاص للخطاب الأصل (الأسلوب)، كما أنها لا تسعى إلى نقل معنى أو قيمة ثقافية (التواصل بين الثقافات). إن هدفها الأول توضيح معلومات (أو استعلامات) لاتصل لعامة الناس، لأنها مكتوبة باللغة الأجنبية.

وهناك بالنتيجة جانب مزدوج للوثيقة التي يهدف المترجم إلى توضيحها. هناك من جهة المعلومة الصريحة في النص الأصل التي تمنع كتابتها باللغة الأجنبية وصولها فورياً للجميع. وهذه أكثر الحالات شيوعاً بالنسبة إلى معظم الوثائق المعالجة. وهناك من جهة أخرى المعلومة الضمنية في اللغة الأجنبية التي تمثل صعوبة إضافية لأنها تتطلب من المترجم ليس فقط فهم معنى الرسالة الأصل، وإنما أيضاً اكتشاف رسالة خفية محتملة تحملها كلمات لا قيمة لها في الخطاب العام وتحليلها.

إن الترجمة التحليلية لا تقوم كثيراً على ترجمة كلمات اللغة ومضمون المعنى، ولا حتى على تأويل "ما يعنيه" المتكلم، ولكنها تتجاوز ذلك فتقوم بتحليل نصي غائي. ينبغي أن يكون هذا التحليل موجهاً نحو اكتشاف المعلومة الملائمة وتوضيحها للمتلقي، لأن الأمر لا يتعلق بمعلومة أو بوثيقة عادية. تكمن عبقرية المترجم في حقيقة أنه يعرف قراءة ما بين السطور، وأحياناً في أنه يكتشف في ما وراء الكلمات الظاهرية المعلومة التي يهدف المتكلم الأصل إلى نقلها بصورة غير مباشرة، وبعبارة أخرى، مقصده التواصلي الحقيقي.

ينبغي لذلك على المترجم أن يمتلك، إضافة إلى كفاءته اللغوية، معارف صحيحة في تحليل الخطاب والتحليل السيميائي للوثائق الشفهية والكتابية. تشكل أدوات التحليل هذه اليوم جزءاً من الحصيلة المفهومية لكل لغوي مؤهل تأهيلاً جيداً للترجمة. ولكن ينبغي على المترجم أن يكيفها مع اللغة الأجنبية، انطلاقاً من تجربته الخاصة، من دون أن يتيه في التأويل المفرط surinterprétation، أو في الشرح والتفسير.

وإنه لمن الصعب توضيح هذه الكفاءة الخاصة في الترجمة التحليلية لأنها تشمل أيضاً أساليب تحليل العناصر الضمنية للخطاب (المعاني الأولية وظلال المعاني، والإحالة إلى الملفوظات داخل النص، والشبكة الدلالية، وتكرار الفئات الدلالية، وتعدد المعاني، إلخ) مثلما تشمل أساليب المقارنة مع خارج النص hors-texte (التناص، والإحالات المتقاطعة، والقيمة الثقافية للعبارات الاصطلاحية، والأقوال المأثورة، والشواهد، والمحاكاة الهزلية، إلخ). إن هدف التحليل قبل الترجمة تثبيت اتساق المضمون من خلال دراسة مفصلة لمختلف هذه العناصر. وإنّ ظهر عنصر مفكك في نهاية التحليل، فإنه ينبغي ترجمة هذا العنصر أولاً لأنه يحمل على الأرجح المعلومة الإستراتيجية المطلوبة.

إن مسلمة الاتساق الداخلي للوثائق فكرة أساسية في التحليل الهادف إلى ترجمة المعلومة الإستراتيجية. ينطلق هذا التحليل من مبدأ صعوبة نقل معلومة مشفرة إن لم يكن هناك شفرة سابقة للفهم بين مرسل الرسالة ومتلقيها. تقوم مهمة المترجم إذن على إيجاد "الشفرة" اللغوية التي تضمن اتساق الرسالة. يجعل ذلك أحياناً الترجمة–التحليل شبيهة بفك رموز الرسائل الثقافية. ويتطلب هذا العمل كفاءات راسخة باللغة الأجنبية، ومعرفة دقيقة بالثقافة الهدف، وعلى وجه الخصوص حساً نقدياً قادراً على دعم خبرة المترجم، وذلك بجعل التحليل الدقيق لموضوعه عنصراً سابقاً للترجمة.

(٢,٤) أسس الترجمة التحليلية

رغم الاضطرابات الكبيرة التي شهدها العالم خلال العقد الأخير، فإن نظرية الترجمة لم تأخذ بعين الاعتبار نتائجها المحتومة على مهنة المترجم. لم يحلل المنظرون والممارسون تحليلاً كافياً التغير الواضح في الرؤية وفي المنهج الذي حدث في المجال اللغوي، وفي المقام الأول في مجال الترجمة. وسوف أعرض بعض الجوانب المتعلقة بتغير الرؤية هذا، وهي جوانب تشهد لصالح نموذج نظري جديد وعملي واسع الانتشار حالياً.

العنصر الأساسي الأول الذي يقود إلى هذا النموذج الجديد هو ظاهرة التسييس المتنامية للغة. وتتضح أكثر فأكثر أهمية اللغة بوصفها أداة أيديولوجية وتحدياً سياسياً مهماً، وهما جانبان لم يعد ممكناً تجاهلهما في معظم مناطق العالم.

العنصر الثاني هو معرفة أكثر فأكثر دقة للعمليات الإدراكية التي يقوم بها الإنسان في إنجاز ترجمة معينة، وذلك مهما كانت طبيعة النص المراد ترجمته. حتى أن "حدس" المترجم أصبح معروفاً بصورة أفضل، ومادة للتحليل العلمي في إطار العلوم الإدراكية. لقد ساعد تداخل الأنساق العلمية إذن على إدراك تعقد مهنة كنا نعتقد بتعذر سبرها.

إن لهذه العناصر مداخل ومخارج جديرة بالشرح شرحاً مفصلاً لأنها تؤدي إلى مفهوم جديد للترجمة ولرؤية جديدة للمترجم.

يتمحور هذا الإدراك حول مفهوم "الانعكاسية" réflexivité الذي يشمل تأمل المترجم في عمله والطابع الانعكاسي لعملية الترجمة في آن واحد. يمكن أن تبدو هذه الانعكاسية، حسب الحالات، مرآة لذهنية المترجم أو موشوراً يشوه مداركه، ومفاهيمه، ومقاصده.

ترفض الترجمة التحليلية عدة مسلمات في الترجمية التقليدية:

- إنها ترفض الفصل بين النص المراد ترجمته وذات المترجم، لأنهما لا ينفصلان في النشاط الترجمي: إن أحدهما يوجد الآخر ويفعّله.
- إنها ترفض وجود "المعنى" في النص: إنه صيرورة devenir خاضعة لكفاءة المترجم الذي يُفعّلها سواء في البداية أم في النهاية.
- إنها ترفض الطابع الغامض "للمعنى"، وتعتبره بمثابة "توجيه" لعقل المترجم في لحظة معينة تتعلق بموضوع خاص. ليس التأويل ترجمة: التأويل نفسه خاضع لفهم المترجم.

- إنها ترفض توظيف fonctionnaliser النص المراد ترجمته لغاية معينة، لأن وظيفة النص أو skopos هما معطيان ذاتيان، ومتغيران، ومرتبطان بالمترجم. وإن غاية فعل الترجمة نفسها متغيرة وظرفية، ولا يمكن اعتبارها مبرراً للترجمة.
- تهدف الترجمة التحليلية في جوهرها إلى استقلال الترجمية، وتعترض بالتالي على رؤية تخضع الترجمة، وتعتبرها متعلقة بالنموذجين الإعلامي والتواصلي فقط (المرسل، والمتلقي، إلخ).

(٢,٤,١) المعنى موجه

إننا نعلم منذ أمد طويل أن اللغة تمتلك تطبيقاً عملياً ذاتياً، وأنه ليس بوسع المترجمين تجاهل هذه الخاصية اللغوية. ومع ذلك، يستمر المترجمون في الترجمة كما لو كانت اللغة شفافة، وكما لو كانت تتابعاً من الكلمات المختصة، ومن المفاهيم المعقمة. وسواء كان ذلك عن جهل أم عن عدم وعي، فإن المنتج النهائي لهذه الترجمات يبدو مشوهاً في حين أنه يهدف لأن يكون "أميناً" للأصل.

تعني عبارة أن الترجمة ليست نشاطاً "حيادياً" أن المترجم ينقل مرغماً مجموعة من الكلمات والعبارات التي لا يمكن اختزال شحنتها الأيديولوجية، والانفعالية أو السياسية. فهذه هي حالة معظم كلمات اللغة، ويشمل ذلك المجالات العلمية أو التقنية. والحال أننا نلاحظ غالباً أن المترجم يُحيّد هذه الشحنة بهدف التمكن من نقل المعنى الموضوعي إلى لغة أخرى.

ولا جرم أنه يمكن أن يكون هناك ضياع في المعنى في أثناء الترجمة، ولكن عندما يكمن الأمر الجوهري في الشحنة الدالة المُحيّدة، فإن مسألة صحة الترجمة تصبح رئيسة. عملياً، ليست الكلمات المراد ترجمتها غير حيادية فقط، ولكن اللغة تحمل أيضا قصدية واضحة.

ينبغي هنا التمييز بين "القصد" intention و"القصدية" intentionalité. يحيل "القصد" إلى تصور التواصل الإنساني على أنه أمر إرادي وواع، وهذا الأمر ليس صحيحاً دائماً. وأما "القصدية" فهي ذات طبيعة ظاهراتية، وتشمل مفهومي الغاية والدوافع. وتساعد على فهم الترجمة على أنها فعل غائي يحركه هدف تأملي.

وهكذا، تتطلب ترجمة نص للقاعدة قبل كل شيء وعياً بحقيقة أن الكلمات نفسها تحمل شحنة من القصدية الخاصة. ولكن الترجمة التي تقوم بالتحييد تصبح بذلك قصدية بمعنى أن الآمر بالترجمة و/أو المترجم لديهما هدف خاص يقوم عليه عمله/عملهما، ويحدد حتى اختيار التعادلات بين اللغات.

ينطلق الفيلسوف بول ريكور Paul Ricoeur في مصنفه الموسوم بعنوان *مسار التعرف Parcours de la reconnaissance* من تحليل الفعل reconnaître (يعرف ثانية / يتعرف على / يعترف / إلخ...) لوضع نظريته المعرفية. يشرح ريكور انتقال المعنى انطلاقاً من فكرة "يتعرف على": "يتعرف على ذاته"، و"يتعارفان"، و"يكون معترفاً به"، إلخ. يهدف ريكور إلى توضيح البنى الذهنية التي يلوح طيفها خلف الكلمات لأخذ أهمية الثقافة الجمعية بعين الاعتبار في إعادة تشكيل اللغة.

إن النص المراد ترجمته متغير الشكل، وإن خيارات الترجمة متعددة غالباً. فما الذي يلفت إذن انتباه المترجم؟ وما المميزات التي يتوقف عندها في الترجمة؟ لأننا إذا ما نظرنا في الأمر عن كثب، فإننا نلاحظ أن إدراك المترجم لا ينطوي على تأويل فقط، ولكنه ينقل أيضاً أحكاماً مسبقة وأفكاراً خاطئة تدخل أحياناً في ثغرات الترجمة. ولا جرم أن المترجم ينقل جيداً حقيقة معينة، وأن حدسه وخبرته تساعدان على إدراك معنى النص، ولكن إدراكه ينطوي على خيار شخصي وذاتي يتعلق بما يقوله النص بدقة. وحتى عندما لا يكون إدراكه مصحوباً بتأمل في دلالة النص الحقيقية، فإنه يسبغ عليه معنى معيناً ويقرر ما يريد قوله للمتلقي النهائي الذي لا يملك النص الأصل.

إن هذه العملية مهمة خصوصاً عندما يكون النص غامضاً، وقابلاً لأكثر من تأويل. إن الترجمة لا تجعلنا على اتصال بالنص مباشرة، وإنما على اتصال بالكلمات التي يختارها مترجم النص. فالموضوع الذي نستطيع الوصول إليه بفضل الترجمة ليس النص نفسه، وإنما فهماً معيناً للنص. وإن المعنى الذي يتم نقله للمتلقي النهائي بواسطة الترجمة يبدو موجهاً دائماً أو يحمل طابعاً ذاتياً على الأقل. يمكن إذن التعبير عن مشكلتين أساسيتين، ولكن هاتين المشكلتين لا تستوفيان المسائل التي تثيرها الترجمة التحليلية.

هناك، قبل كل شيء، مسألة أصل إدراك المترجم وطبيعته. تكمن المشكلة في معرفة إن كان هذا الإدراك نفسه الحدس الذي يستمد أصله من الترجمة أم إن كان مستمداً من أصل ينبغي تحديده.

يبدو الإدراك في الحالة الأولى أساس كل مهارة لدى المترجم، وينبغي إن جاز التعبير الاعتناء به بهدف تنمية المعرفة النظرية والعملية وتحسينها.

وأما في الحالة الثانية، فينظر إليه على أنه طريقة لفهم العالم والنص، وهي طريقة مستمدة من الإحساس الشخصي أو من المعلومات التي يمتلكها المترجم في لحظة معينة بخصوص حدث معين. وإن كان الأمر كذلك، فإنه لمن المهم إثراء معارف المترجم في كل الموضوعات التي تهم عمله لتأمين أكبر قدر من الموثوقية للمنتج النهائي (النص-المترجم).

إن طبيعة الإدراك الترجمي مسألة أساسية تتحكم بممارسة المهنة وبالتأهيل للترجمة. فالإدراك لا يجعلنا فقط أمام نص مختلف، وإنما أيضاً أمام معنى خاص يحمله النص بالنسبة إلى المترجم، وبالنسبة إلينا بوصفنا المتلقين النهائيين.

إنني أركز هنا على حقيقة أن الأمر يتعلق "بمعنى" خاص وليس "بتأويل"، لأن "التأويل" نشاط فكري يخضع هو أيضاً لإدراك المترجم-المؤول. وهو ثانوي

بالنسبة إلى الإدراك، ويستمد أصله من فكر المترجم أو اعتقاده بخصوص كلمات وأفكار نص أو كاتب معين.

يهدف التمييز بين التأويل والإدراك إلى توضيح أن المترجم يهتم دائماً بالموضوع الذي يترجمه: إنه ينظر إليه على أنه سهل أو صعب، وعام أو متخصص، وسطحي أو عميق، ومهم أو مضجر، إلخ. وتبقى دلالة النص ذاتية على الرغم من حالة اللامبالاة هذه، وحتى في الحالات التي ينظر فيها المترجم بلا مبالاة للنص المراد ترجمته.

وهكذا، يكاد معنى النص-المترجم أن يكون دائماً فعلاً إدراكياً يحمل تأثرية أو انفعالية بالمعنى الفلسفي للكلمة. إن هاتين الحالتين النفسيتين تستوجبان عملاً انتقائياً يتعلق بالطريقة التي يتم فيها إدراك النص (أو النص المراد ترجمته). وباختصار، إن حيادية المترجم خدعة، وإن تحديات الترجمة أخلاقية وأدبياتية قبل كل شيء.

(٢,٤,٢) التحليل ضروري

لقد اخترت التركيز على المترجم التحريري في علاقته بالإدراك، ولكنني أستطيع أن أطرح الإشكالية نفسها فيما يتعلق بالمترجم الشفهي، باللجوء إلى التمييز الفلسفي بين الإدراك الحسي القائم على الجسد، والإدراك العقلي القائم على العقل.

إن إدراك طرائق الوجود والحالات الانفعالية (العدوانية، والفرح، والعفوية، إلخ) في عمل المترجم الشفهي يؤثر في طريقة ترجمة كلام الآخر. وبالمثل، يعتبر إدراك التأثيرات والأفكار عاملاً حاسماً في عملية الترجمة الشفهية. وإن القدرة على تمييز هذه الحالات المختلفة يساعد على رؤية ما الذي يجعل الإدراك يشمل العمل العقلي في الترجمة الشفهية التقليدية ويتجاوزه. إن إدراك خيبة أمل لدى الآخر، وإدراك الاستياء في حركاته أو في كلامه يؤثر غالباً فيما يريد قوله، وفيما يستطيع المترجم الشفهي نقله أو ترجمته.

إن إدراك هذه الإشارات في التواصل غير الكلامي يعني أنه ينبغي في كل مرة فك رموزها وقراءتها بطريقة معينة. يرى المترجم الشفهي عبوساً، ويلاحظ إشارات المتكلم، ولكن ينبغي عليه أن يربطها بالملفوظ، وأن يترجم القصد حسب المقتضى. يميز ذلك الإدراك في الترجمة الشفهية لأن المترجم يستخدم حواسه وليس فقط معرفته أو كفاءته اللغوية. فإن أدرك استياء في العبوس أو غضباً في الإشارات، وبعبارة أخرى إن أدرك دلالة هذه الحركات الجسدية، فإن ذلك سيقوده حتماً إلى نقل معان أقل وضوحاً وأكثر ذاتية.

توضح هذه الأمثلة أن عملية الإدراك تتطلب جهداً شخصياً. يحاول المترجم الشفهي، بفضل خبرته وكفاءته، أن يدرك من خلال إشارة جسدية (حركة، وتكشيرة) المعنى الحقيقي لعبارة لغوية أو المعنى الضمني لفكرة أو أيضاً مغزى مقصد تواصلي. فالإدراك يشمل العمل العقلي في الترجمة الشفهية، وذلك من خلال صياغة الموضوع والتكيف مع المعطيات.

ولكن مصطلح "الترجمة الشفهية"، خلافاً لمصطلح "الترجمة التحريرية"، ينطوي على غموض. فالترجمة الشفهية أكثر اعتماداً من الترجمة التحريرية على الجسد في تلقي كلام الغير ونقله من خلال الحواس. وإذا أردنا التمييز تمييزاً واضحاً بين "الترجمة التحريرية" و"الترجمة الشفهية"، فإنه ينبغي التركيز على حقيقة أن الثانية تُعرّف بأنها استقبال كلام أجنبي في جسدنا، في حين أن الترجمة التحريرية تقوم على إسقاط كلام داخلي على موضوع موجود خارج ذاتنا، ألا وهو الجسد النصي.

إنني لا أميز بين المصطلحين من أجل المقارنة بينهما، وإنما من أجل التركيز على حقيقة أننا ندرك الأشياء إدراكاً مختلفاً عندما نقوم بالترجمة التحريرية والترجمة الشفهية. إن هذا الاختلاف في الإدراك يتعلق على الأقل بالعامل الجسدي والزمني الذي يستوجب آنية وسرعة في عملية الإدراك لدى المترجم الشفهي، في حين أن

المترجم التحريري يستطيع نسبياً أن يجيز لنفسه وقتاً للتأمل والتحليل. يتفاعل المترجم في الحالة الأولى مع ما يقال، ويعمل على النص في الحالة الثانية. ومن هنا كان تعريف الترجمة التحريرية، من وجهة نظر زمنية وإدراكية، بأنها شكل من النشاط، وتعريف الترجمة الشفهية بأنها فن التفاعلية.

(٢,٤,٣) ليس المترجم رجلاً متوارياً عن الأنظار

يعتبر المترجم الشفهي–التحريري نفسه، في مقابل الكون، متفاعلاً مدركاً. فالتمييز الدقيق بين هذا المتفاعل المدرك والنص المطلوب المعروض ترجمته يصعب تبريره. يتم الفعل الإدراكي لدى المترجم الشفهي–التحريري في التواصل وليس في الذات. وبعبارة أخرى، ليست الترجمة التحريرية–الشفهية ترجمة ذات تتجاوز الرسالة. وبالمثل ليس العالم الذي يتم إدراكه مجرد موضوع قائم بذاته بمعزل عن الذات المُدركة.

وفضلاً عن ذلك، ليس التواصل موجوداً بالنسبة لي إلا من خلال إدراك يرفع أو يحط من قيمته، ومن خلال اهتمام وتأثر يميزان إدراكي له. ولهذا السبب لا يمكن فهم هذا التقويم للأشياء المدركة في التواصل على أنه يتعلق بحكم خال من الإحساس، ومنفصل عن المترجم. إن هذا التقويم يتوقف على علاقتنا الحميمة بموضوع التواصل. وهذا صحيح لاسيما أن عمليات التواصل ليست موضوعات حيادية نطلق عليها بعد ذلك من خلال حكم خارجي نعتاً خارجياً يجعلها موجودة بالنسبة إلى جمهورها من زاوية معينة. فعمليات التواصل هي، على العكس من ذلك، أشياء نعيشها وليس فقط أشياء نحكم عليها: إنها معيشة بوصفها قيمة. يعني ذلك أن الترجمة التحليلية ليست جعل التواصل موضوعياً، وأنها تتعلق بالأحرى بنوع من "الإيمان": إنها تتعايش مع الأصل في حالة بديهية، من خلال رغبتنا في الوجود بها ومن خلالها.

ينبغي على الفور، لفهم الطبيعة الحقيقية للفعل الترجمي، فصل الكلمات المراد ترجمتها عن المعنى المدرك. الترجمة عمل عقلي وانفعالي: لا جرم أن العقل هو الذي يفكر في أثناء الترجمة، ولكننا نترجم أيضاً بقلوبنا. إن الترجمة تحمل المترجم على الفعل، وبالتزامن، على التفكير. وإن العقل لا يستطيع الإدراك إلا إذا تأثر المترجم، وجعل من الترجمة مجرد توجيه للعقل في لحظة معينة، ووفقاً لإدراك خاص. وإن فهم الرسائل المراد ترجمتها يخبر عن طبيعة إدراكنا أكثر من إخباره عن المعنى الحقيقي للرسائل. وهذا ما يفسر جزءاً كبيراً من ظاهرة تكرار إعادة الترجمة وإعادة طباعة الترجمات القديمة وتحديثها.

ينبغي التمييز في التواصل متعدد اللغات بين البعد التمثيلي والبعد الإخباري للترجمة. تمثل ترجمة ما رسالة فتجعلها "حالية" في كل مرة، لأنها صورة عن فهمنا. فترجمة المعنى تعني تخيله انطلاقاً من كياننا أكثر من تخيله انطلاقاً مما هو عليه بالفعل.

ولكن الترجمة التي تمثل لنا الرسالة الأصل تخبر في الوقت نفسه عن حالة إدراكنا، أي عن الطريقة التي ندرك بها الأشياء في الكون. يصور الفعل الترجمي نفسه إذن الأصل، ويخبر عن إدراكنا الخاص بنا.

وإذا كانت كل ترجمة إدراكاً إخبارياً لحالة داخلية (إدراكنا) وتمثيلاً لموضوع خارجي (النص المعروض ترجمته)، فإنه لمن الواضح أنه لا يمكن أن تكون هناك ترجمة حيادية، وموضوعية، وغير موجهة. حتى أنه لا يمكن أبداً أن تكون هناك ترجمة من دون تأثر. فالمترجم لا يمكن أن يكون منفصلاً عن العالم، ولا يمكن أن يتناول العقل الرسائل من دون أي إدراك مسبق. وهذا صحيح لاسيما أن أي ترجمة لا توجد أبداً من تلقاء نفسها، لأن كل رسالة، وكل نص يُعرَّف بناء على ذاكرة تعتبر تناصاً. فكل ترجمة معاصرة تذكر بكل بالترجمات السابقة وتمهد للترجمات القادمة فتكون بذلك معاً ما تعيشه ذاكرة كل مترجم.

(٢,٤,٤) كوجيتو ما قبل الترجمة

إننا نترجم في معظم الأوقات نصوصاً من أجناس معروفة. وسواء ترجمنا روايات ودراسات وإعلانات أم كتب استخدام الأجهزة، فإننا نسلك طرقاً سبق أن سلكناها (سردية، وحجاجية، وإخبارية، إلخ)، ونستخدم أساليب سبق أن عرفناها (الاقتراض، والنسخ، والتكييف، والتحوير، إلخ). ولكن ترجمتنا لا يمكن اختزالها إلى تحديث ذكرياتنا التناصية، ولا إلى تجاربنا الماضية. تتمسك الترجمة التحليلية بوصف الطرق النوعية التي يتناول المترجم الشفهي–التحريري من خلالها الموضوع الذي يريد ترجمته، وتصوره، وإدراكه، وإبداء رأيه فيه، والشعور به، ومعالجته، إلخ. لأن تأمل المترجم يشير إلى عودته إلى تجربته السابقة من خلال نظرة مزدوجة تتمثل في الملاحظة والتقويم (نقد الذات). ومن المؤكد أن الترجمة موجهة نحو موضوع معين، لكن المترجم يستطيع في أي وقت العودة إلى ذاته وليس إلى هذا الموضوع الخارجي، ليتأمل ممارسته. وهكذا يستطيع المترجم وهو يترجم تفحص عمله الترجمي داخلياً، وملاحظة إن كان يقوم به بشرود أم بتركيز، وجد، وشغف، وضجر، إلخ.

يجعل الفيلسوف ميرلو–بونتي Merleau-Ponty من هذه الانعكاسية réflexivité جوهر العلاقة التي تقيمها الذات مع العالم. إن التفكير في الترجمة انطلاقاً من هذا الأفق الفلسفي يعني تأكيد المصير المشترك بين المترجم والمؤلف، وضرورة وجود المترجم في اللحظة نفسها التي يجعل فيها النص المترجم موجوداً: "إن الذي يرى شيئاً لا يستطيع أن يملكه إلا إذا تملكه هو أيضاً" (ميرلو–بونتي Merleau-Ponty، ١٩٦٤م: ص ١٧٧).

ينبغي التركيز على حقيقة أن الترجمة بوصفها فعلاً إدراكيا لا يمكن فهمها باعتبارها تمثيلاً بعيداً عن النص، بذريعة أن المترجم يكون منفصلاً كلياً عن الموضوع المترجم. وحتى لو استخدمنا مفردات "التمثيل" لأسباب تعليمية، فإنه ليس بوسعنا إدراك الترجمة من خلال التقابل بين الذات (التي تتلقى طلباً من الزبون) والموضوع

(الركن المادي للعمل). الترجمة بالأحرى صلة وصل بين كياني والكيانات الأخرى، تعبر عن إقامة علاقة ديناميكية بين كائنات في وقت معين من تاريخ البشرية.

وتبقى هناك "المسافة" الملازمة للفعل الترجمي. ولا جرم أن الترجمة هي في الوقت نفسه أن نجعل من أنفسنا قادرين على الاقتراب من النص المراد ترجمته (تميل الترجمة هنا إلى تقليص المسافة). ولكن المترجم ينزع من خلال ذلك إلى زيادة هذه المسافة بنقل المعنى المدرك إلى لغة أخرى. تعكس هذه المسافة استعداده الفوري "للتأثير" في العالم و"للتأثر"به، وفقاً لعبارة ميرلو-بونتي.

أشير في أثناء ذلك إلى أنه ينبغي التفكير بالعدول تدريجياً عن ثنائية "الأصل" (نص الانطلاق) والهدف (نص الوصول) المستبطنة ردحاً طويلاً من الزمن. وتتضح اليوم ضرورة إعادة وضع المترجم بوصفه ذاتاً مُدركة في مركز النقاش الدائر حول مداخل الترجمة ومخارجها. عندئذ تختلط الحدود بين السلبية والإيجابية، أو بالأحرى بين تلقي المعنى وإنتاجه. وهناك صورة بليغة تساعد على إدراك هذا التغير في المنظور، ألا وهي المكعب الترجمي.

(٢,٤,٥) المكعب الترجمي

لا يكفي وصف النص المراد ترجمته من خلال "معناه" أو "مضمونه" فقط. إن أهمية الترجمة لا تقوم على قطب موضوعي موجود قبل التوتر الحاصل الناجم عن ظهور المترجم. يُوجِد المترجم معنى النص مثلما يُوجِد المعنى المترجم. وبعبارة أكثر دقة: إذا كان المعنى المدرك لا يوجد إلا من خلال مترجم يدركه، فإنه لا يمكن من الزاوية نفسها إدراك الذات المدركة إلا من خلال ترجمتها.

يمثل فعل الترجمة التحدي المركزي للتأمل لأنه يُوجِد المعنى للمترجم والمترجم للعالم بالتزامن. وعندما نتخلص من فكرة أولية المعنى في فعل الترجمة،

فإننا سوف نتمكن أكثر من إبراز وجود الترجمة بذاتها. ولكن كيف يمكن إدراك ما يميز الترجمة؟

تساعد أعمال الفيلسوف جان–بول سارتر Jean-Paul Sartre عن التخيل المبدع على أن نستشف إجابة عن هذا السؤال.

"ينبغي أن نتعلم الموضوعات، أي أن نعدد وجهات النظر الممكنة المتعلقة بها. الموضوع نفسه مركب من كل هذه التجليات... ما الذي يعنيه ذلك بالنسبة إلينا؟ ضرورة رؤية الموضوعات من جميع وجوهها" (سارتر Sartre، ١٩٤٠م: ص ٢٢).

يتطلب ذلك انفتاح المترجم على معرفة لم يكتسبها بعد. إنه الاكتشاف الضروري للموضوع على مراحل، وبالتدريج. يساعد مثال "المكعب" الذي وصفه سارتر على إدراك تعقد ظاهرة إدراك المعنى في الترجمة:

"رغم أن الموضوع يدخل كاملاً في إدراكي، إلا أنه ليس متاحاً لي أبداً في الوقت نفسه إلا من جانب واحد. إننا نعرف مثال المكعب: ليس بوسعي معرفة أنه مكعب طالما أنني لم أدرك وجوهه الستة، إذ أنني أستطيع عند اللزوم رؤية ثلاثة منها، وليس أكثر مطلقاً. وينبغي إذن أن أدركها بالتتابع" (سارتر Sartre، ١٩٤٠م: ص ٢١).

وأما في الترجمة، فالنص المراد ترجمته موجود بعامة أمامي باعتباره موضوعاً أريد معرفته. ولا جرم أنه يمكن أن يكون إلكترونياً، ولكن هذا لا يغير شيئاً من طابعه المحسوس والملموس، واعتباره موضوعاً أريد ترجمته. ليست المشكلة إذن في

الموضوع، وإنما في طريقة إدراكه. وأعرض هنا تمثيلاً للموضوع الترجمي وفقاً لصورة المكعب والمفهوم الانعكاسي المشار إليه سابقاً.

إن صورة "المكعب الترجمي" تساعد على إدراك تعقد عملية الترجمة. يتكون المكعب في الواقع من ستة وجوه، ولا يمكن رؤية إلا ثلاثة وجوه منها في آن واحد. إن الوجوه المتاحة للمترجم هي وجوه مفاهيمه، وإدراكاته، ومقاصده الخاصة به. ولكن ينبغي عليه بالضرورة قلب "المكعب" لرؤية المفاهيم والإدراكات والمقاصد لدى "الآخرين" الذين يتكلمون من خلال النص الأصل.

إن هذه الصورة المألوفة والديناميكية تساعد على فهم أن عملية الترجمة تطابق جوهرياً نشاطاً تأملياً دائم التكيف. ولهذا السبب فإنها تفتح مجالات تطبيقات تعليمية جديدة. تقوم المنهجية الأساسية على تعليم عملية الترجمة وفق ثلاث مراحل جوهرية: تفكيك المكعب الترجمي، واختيار الوجوه الملائمة للترجمة، وقيام المترجم بإعادة تركيب المكعب.

تكمن الصعوبة في حقيقة أنه ينبغي الاعتراف صراحة أنه ليست هناك طريقة واحدة لتحليل الكلمات: إن ما نحصل عليه نتيجة التحليل موضوع مركب تميزه الظروف التي سبقت تركيبه (كامب وريل Kamp et Reyle، ١٩٩٣م).

تنطوي لغة الإنسان على بعض الخصائص النوعية التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار.

أولها: القدرة على التعبير عن المقصد وعن المستقبل وليس فقط عن الواقع والحاضر. وهذا هو الشرط اللازم للقدرة على التجريد. وثانيها: القدرة على التعبير عن العلاقات المنطقية، إذ تساعد اللغة على نمو منطق وحجاج بشأن ظاهرة أو موقف معين. وثالثها: القدرة على التعبير عن ذاكرة الماضي، إذ تتمثل النتيجة الأكثر كمالاً لهذه القدرة في نقل التجربة بعدة طرق (الكتابة، والتسجيل السمعي، والمرئي، إلخ).

ويمكن بالنتيجة التمييز بين ثلاث مستويات في التحليل:

- المستوى الأول هو مستوى اللغة بوصفها نظاماً دلالياً: تعني كلمة "خادم" في اللغة العربية على سبيل المثال "serviteur" (المعنى الأولي، والظاهر).
- المستوى الثاني هو مستوى اللغة بوصفها نظاماً معرفياً: تستخدم كلمة "خادم" نفسها لقباً رسمياً لملك المملكة العربية السعودية: خادم الحرمين الشريفين Serviteur des Lieux Saints[1].
- المستوى الثالث هو مستوى اللغة بوصفها نظاماً تواصلياً: تستخدم كلمة "خادم" نفسها في المثل العربي "خادم القوم سيدهم" الذي يعكس كلياً المعنى الأولي للكلمة لأن "الخادم" على المستوى الدلالي يصبح "سيداً" على المستوى التواصلي.

إن هذه المستويات الثلاثة للإدراك اللغوي تتداخل وتتكامل من وجهة النظر الإدراكية لتنتج المعنى الإجمالي للرسالة في وقت معين، وفي موقف خاص. ولكن لا يستطيع الناس كلهم الوصول إلى هذه المستويات المختلفة في آن واحد، لأن ذلك يتطلب تمكناً كافياً من النظام اللغوي المعقد.

يساعد "المكعب الترجمي" على فهم العلاقة التي تربط العالم الذاتي للمترجمين بالمعطيات الموضوعية للنص المراد ترجمته فهماً أفضل. والحقيقة أن المترجمين الشفهيين–التحريريين يقرنون لا شعورياً ما يحسون به بسبب انطباعهم؛ إذ أنهم يحسون بكم من الانفعالات، يُعرّف بالتضاد مع الموقف الذي يعيشونه، ويحاولون لاشعورياً أن يضفوا عليه أهمية ليتمكنوا من الترجمة. ويجعلون في فعلهم

---

[1] هكذا جاء في الأصل، وهناك ترجمة أخرى دارجة، وأكثر دقة على ما أعتقد، وهي Le Serviteur des deux Saintes Mosquées. (المترجم).

هذا من المعطى النصي أو المنطقي الذي ينتمي قطعاً إلى الوعي الذاتي أمراً موضوعياً.

إن المرحلة الأولى هي مرحلة الإدراك: إنها تتعلق بتأثير كلمات النص المراد ترجمته على القوى العقلية للذات المترجمة. وإن هذا التأثير حركة تبدأ من الكلمات وتنتهي بالعقل مروراً بمختلف مراكز الأعصاب والذاكرة. وإن آلية فهم النص المراد ترجمته تتسم ببعد إدراكي تتفاعل فيه مكونات الموضوع الترجمي مع المعاني المحفوظة والمسماة "المدركات حسياً" percepts (دولوز Deleuz، ١٩٨١م).

وأما المرحلة الثانية فهي مرحلة الفهم: إنها تتعلق باتحاد المفاهيم المنبثقة من النص والإدراك المخزن في ذاكرة الذات المترجمة. يفهم العقل هنا حركات النص نسبة إلى المعارف السابقة لدى المترجم. لا تطابق بالضرورة الانطباعات التي يتم الشعور بها الموضوعات المراد ترجمتها، ولكنها تساعد على إطلاق العملية الترجمية. فالتقاء الدلالات الذهنية والنصية يساعد على حل رموز النص وتأويله.

المرحلة الثالثة هي مرحلة القصد: إنها تتعلق بتشكيل مركب "المدركات حسياً" و"المفاهيم" الناتج عن العمليتين السابقتين وفق رؤية خاصة، سواء كانت ذات طبيعة شخصية، موضوعية أو مؤسساتية. وإن النشاط الهادف إلى التعادل هو بالمعنى الدقيق اللحظة الجوهرية في هذه المرحلة المقصودة، لأنها تطابق بدقة تخصيص معنى غائياً، عاماً أو خاصاً يمكن ملاحظته على المستوى الأكبر أو الأصغر للنص.

وهكذا، تبدو الترجمة في نهاية الأمر ديناميكية بين حركة سلبية (الإدراك) وحركة إيجابية (الفهم) تميل إلى هدف دقيق (القصد) يحدد إمكانيات التشكيل النهائي للتواصل.

(٣) تبين الوضع

إن التحديات السياسية للغة كبيرة لدرجة أن التواصل متعدد اللغات غالباً ما يواجه إشكالية التسييس. يتعلق هذا التسييس بالوسيط médium، أي برؤية اللغة نفسها، مثلما يتعلق بالمضمون، أي المعنى والقصد لدى المتكلم، الأمر الذي يجعل التواصل مُسيساً أحياناً، وموجهاً أو مؤدلجاً. وهكذا، بينت دراسة مواقع السفارات العراقية بوضوح وجود ليس فقط "أيديولوجيا الترجمة" وإنما أيضاً تسييساً واضحاً للمضمون التحريري، لاسيما في معالجة التاريخ القومي.

يساعد المنظور المتعلق بعلم السياسة على البرهنة على وجود وجهة نظر ترجمية توجه التواصل في اتجاه محدد. ولا جرم أنه كانت هناك سوابق تاريخية لهذا النمط من التوجيه الاستدلالي مثل برقية إيمس Ems، لكن الأمر الجديد يكمن في الانتشار الهام الذي يحققه التواصل الموجه اليوم بفضل الإنترنت، ووسائط الإعلام العابرة للحدود. إن المترجمين الذين يستخدمون مثل هذه الإستراتيجيات يمكن في بعض الحالات أن يزرعوا – عن قصد أو عن غير قصد – الرعب. ولهذا السبب، من الضروري تبني مقاربة تحليلية للترجمة. ويبدو من هذا المنظور أن التواصل متعدد اللغات موجه بسبب وجود مفاهيم وإدراكات ومقاصد مختلفة حسب النصوص، والسياقات، والمترجمين. وينبغي تحليل هذا التوجيه الفكري تحليلاً تفصيلياً في كل مرة.

تهتم الترجمة التحليلية بعملية الترجمة بوصفها فعلاً تواصلياً تأملياً. وترفض الثنائية "النص الأصل" في مقابل "النص الهدف"، وتضع المعنى في إدراك المترجم في وقت معين. إن تأكيد أن المعنى موجه يعني أنه تابع للإدراك لدى الذات المترجمة. وبعبارة أخرى، ينبغي أن يتأمل المترجم في فهمه بهدف الحد من المخاطر المرتبطة بالنشاط الترجمي: إنه كوجيتو ما قبل الترجمة. وتقدم استعارة "المكعب الترجمي" شرحاً مبسطاً لهذه الظواهر التفاعلية للتواصل متعدد اللغات.

(٤) من أجل التعمق في الموضوع

– حول ظاهرة التسييس بعامة:

Lagroye. J. (2003), *La Politisation*, Paris: Belin.

– حول الجوانب السياسية للترجمة:

Baker M. (2006), *Translation and Conflict. A Narrative Account*, London: Routledge.

– حول الترجمة والإرهاب:

Guidère M. et Morgan N. (2007), *Le Manuel de recrutement d'Al-Qaïda*, Paris: Seuil.

– حول ترجمة-تحليل الوثائق الحساسة:

Guidère M. (2004), "Professional Translation and National Security", in *Proceedings of the 45th ATA Conference*, Toronto, Canada, pp. 333-343.

(٥) اختبر معارفك

(أ) ما الفرق برأيك بين "سياسة الترجمة" و"الترجمة المسيسة"؟

(ب) ما الدلائل على التسييس في التواصل متعدد اللغات؟

(ج) كيف يمكن اكتشاف وجهة النظر التواصلية في رسالة مترجمة؟

(د) اشرح الجانب الأيديولوجي في التواصل الموجه. اذكر بعض الأمثلة من لغات مختلفة.

(هـ) لماذا يعتبر التحليل المعمق لبعض الرسائل ضرورياً؟

(و) ما الذي يجعل من الترجمة التحليلية عملية انعكاسية؟

(ز) لماذا لا يمكن أن يكون المترجم "رجلاً متوارياً" عن الأنظار في التواصل متعدد اللغات؟

(ح) اشرح صورة "الملعب الترجمي" مع تقديم أمثلة.